رواية

أرض أرملاخ

"أرملاخ..... أرض بلا مهرب"

رقية ميري كاظم

لا تفتح هذه الصفحات....!

إلا إن كنت مستعدًا لأن ترى ما لا يُرى، وتسمع ما لا يُقال...

هذه ليست قصة شجاعة، ولا رحلة نجاة... بل هبوط بطيء نحو عالم يتنفس بين الجدران، يهمس في زوايا الليل، ويسرق وجوه من يحدق فيه طويلاً.

في هذه الأرض، لا يُدعى الموتى موتى، ولا يُدعى الأحياء أحياء...

أرض أرملاخ ليست مكانًا... إنها جرحٌ مفتوح في ذاكرة ما قبل الخلق.

فإذا قررت أن تكمل، فتذكّر:

الأبواب تُفتح بسهولة، لكن لا أحد يضمن لك طريق العودة.

..... قبل أن تقلب الصفحة، قِف لحظة...

اقرأ هذه الشروط همسًا، أو في قلبك... لكن احذر أن تكذب على نفسك، لأن أرملاخ لا تُسامح.

1. لا تتابع القراءة بعد منتصف الليل.
في ذاك الوقت، لا تفرق الأرواح بين من يقرأ... ومن يُستدعى.

2. لا تنظر في مرآة أثناء قراءتك.
فمن قرأها وانعكس، عاد بوجهٍ ليس له.

3. اقرأ وحيدًا، دائمًا.
ليس لأنك تحب العزلة... بل لأنهم لا يحبون أن تُراقبهم وأنت تقرأ عنهم.

4. لا تنطق اسم "أرملاخ" بصوت عالٍ.
فهو ليس اسمًا... بل مفتاح.

5. وأخيرًا... إن شعرت بأن الصفحة التالية تتحرك وحدها،
أغلق الكتاب فورًا... واهرب.

هل ما زلت هنا؟

حسنًا... افتح الصفحة التالية، لكن تذكر:

فاطمة دخلت وحدها... ولم تخرج كما كانت.

الساعة التاسعة صباحًا.
شمس البصرة القاسية تلوّن الجدران بالذهبي المحترق، والهواء ثقيل، كأنّه يحبس أنفاس الطالبات.

داخل الصف، كانت فاطمة جالسة في المقعد الثالث إلى اليمين.
المدرّسة تشرح درس الكيمياء بصوت رتيب، ويدها تتحرك على السبورة البيضاء بقلم أسود، تكتب معادلة عن الروابط التساهمية.
رائحة الحبر الجاف تملأ المكان.

فاطمة تحدّق، لكنها لا ترى.
عيناها تتبعان حركة اليد على السبورة، لكن عقلها في مكان آخر...
مكان رمادي، لا صوت فيه سوى الذكريات.

منذ وفاة والدتها، أصبح كل شيء في الحياة أبطأ...
الأيام، الأصوات، حتى تنفّسها.

تحاول التركيز، لكن كل شيء حولها صار بلا طعم.

صوت المدرّسة يرتفع قليلًا:
"من تعطيني مثالاً على المركب التساهمي؟"

لم تجب. لم تنتبه للسؤال.

صوتٌ همس بجانبها:
"فاطمة... اجيبي، قبل لا ان تنزعج المعلّمة!"

استدارت ببطء نحو زميلتها، ابتسمت دون حماس، ثم نظرت إلى السبورة من جديد، ودوّنت شيئًا لا تفهمه فقط كي تبدو مشغولة.

في تلك اللحظة...
كانت مجرد طالبة عراقية، في مدرسة حكومية عادية، يومها يشبه ألف يوم سابق.

رنّ الجرس أخيرًا، مُعلنًا بداية الاستراحة. خرجت الطالبات من الصفوف وهنّ يتحدثن ويضحكن، كأنّ الهموم قد أُزيلت عن كواهلهنّ مؤقتًا.

جلست فاطمة مع ثلاث من زميلاتها حول طاولة خشبية في ساحة المدرسة. كانت الشمس خفيفة، والنسيم يمرّ بهدوء بين الأشجار الصغيرة المنتشرة في الزوايا.

قالت إحداهن، وقد ضحكت قبل أن تُكمل جملتها:
"تخيّلن، كدتُ أن أضع الملح بدل السكر في الشاي، أمام خطيبي! لولا أنّه أوقفني في اللحظة الأخيرة، لكنتُ فضحت نفسي!"

ضحكت الفتيات جميعًا، وفاطمة غطّت فمها براحة يدها، تضحك معهم بخجل.

قالت الأخرى وهي تفتح حقيبتها وتُريهم شيئًا صغيرًا:
"هذا الخاتم أهداني إيّاه زوجي قبل يومين، قال لي: لا يهم إن كان ثمينًا، ما يهم أنني اخترته لكِ وحدك."

قالت الثالثة بحماسة:
"أما أنا، فقد حدث لي موقف مضحك جدًا... أختي الصغيرة وضعت أحمر الشفاه على وجه القطة، وظنّت أنّها أصبحت عروسًا!"

ازداد الضحك، وصوت الفتيات اختلط بصوت الأحاديث الأخرى في ساحة المدرسة. كانت فاطمة تبتسم، تُشارك في الحديث أحيانًا، وتستمع أكثر ممّا تتكلّم.

شعرت للحظة، أنّها كأي فتاة أخرى... لا شيء يُنذر بأنّ شيئًا ما في حياتها على وشك الانهيار.

في تمام الساعة الثانية عشرة مساءً، عادت فاطمة إلى منزلها المتواضع في حي الزعفرانية، أحد أقدم أحياء البصرة وأكثرها حيًا بالذكريات. دخلت البيت بهدوء، لم تسمع صوت والدها، وظنت أنه لا يزال في عمله كما هي عادته في أغلب الأيام. كان البيت خاليًا من الحركة، نوافذه تتلألأ بضوء الشمس الساطع الذي كان يتسلل من الخارج.

وضعت حقيبتها الثقيلة على الأرض بجانب السرير، وجلست عليه للحظة تستجمع أفكارها. الغرفة كانت صغيرة، تحتوي على سرير واحد وطاولة صغيرة عليها بعض الكتب المدرسية، وبعض الصور القديمة التي تذكّرها بوالدتها التي رحلت منذ أشهر قليلة. الهواء في الغرفة كان بارداً قليلاً، رغم حرارة الجو الخارجي، وربما كان ذلك انعكاسًا لحالة الوحدة التي تعيشها فاطمة.

تأملت النافذة التي تطل على الشارع، حيث يمرّ بعض المارة والمارة، ضجيج المدينة المعتاد، وأصوات الباعة.

فاطمة اتجهت بخطوات هادئة نحو المطبخ الصغير المتواضع في زاوية البيت. فتحت خزانة المطبخ بحذر، وأخرجت بعض الخضروات والطماطم التي كانت قد اشترتها في اليوم السابق. وضعت القدر على الموقد، وأشعلت النار بهدوء، ثم بدأت تغسل الخضار بدقة، تراقب تدفق الماء على أصابعها كما لو كانت تحاول الهروب من فكرة ما.

لم تكن هناك موسيقى في البيت، ولا ضحكات عالية، فقط صوت الماء المتساقط وصوت تقطيع الخضروات على لوح التقطيع. فاطمة كانت تغلي في صمت، لا تفكر في شيء سوى الخطوات التي يجب أن تنجزها. كل حركة كانت تتم ببطء، كأنها تؤدي رقصة متكررة تحفظها عن ظهر قلب.

كانت تهتم بكل تفصيل صغير، تنثر الملح هنا، وتضع بعض البهارات هناك، تتذوق الطعام بخفة لتتأكد من نكهته. لا ضجيج ولا ضوء ساطع في المطبخ، فقط نور خافت يتسلل من النافذة، يعكس الظلال على وجهها الهادئ.

لم تتحدث مع أحد، ولم تكن تفكر في الغد أو الماضي، كانت موجودة فقط في اللحظة، في تلك المطبخ الصغيرة التي كانت تحاول أن تحافظ على بقاء شيء من حياتها الطبيعية وسط كل ما يحيط بها.

عاد والدها فجأة، فتح باب البيت بصمت، لكنه بدا عليه التعب والجمود كما لو كان يحمل ثقل الأيام على كتفيه. نظر إلى فاطمة نظرة قصيرة، بلا أي كلمة، ثم جلس على الكرسي في الزاوية، لا يبالي بوجودها. كانت هناك مسافة لا تُكسر بينهما، صمت ثقيل يخيم على المكان.

فاطمة لم تتجرأ على الكلام، فقط تابعت عملها بصمت، تحاول أن تخفي خفقان قلبها وكأنها تخشى أن يهتز هذا الصمت ويكشف ما يختبئ خلفه من ألم أو غضب. الهواء في الغرفة بدا بارداً أكثر من المعتاد، وكأن وجوده وحده يثقل الجو.

لم يكن هناك أي دفء في تلك اللحظة، فقط حضور ثقيل يُشعرها بأنها وحيدة وسط هذا البيت الكبير الذي لم يعد يحتضنها كما كان.

سألها والدها، سجاد، بصوت خافت لكنه جاف: "هل انتهيتِ من إعداد الغداء؟"

نظرت فاطمة إليه بهدوء، تحاول أن تخفي التوتر الذي بدأ يتسلل إلى صدرها، وأجابت بهدوء: "نعم، انتهيت."

لم يزد على ذلك، فقط رمقها بنظرة عابرة، ثم توجه إلى كرسيه وجلس دون أن يقول كلمة أخرى، وكأن السؤال كان مجرد روتين لا أكثر، لكن في صمته كانت تتراكم آلاف الكلمات التي لم تُقال.

قدمت فاطمة الطبق إلى والدها بصمت، وهي تشعر بثقل في صدرها، تراقب حركاته بتأنٍ. أخذ سجاد الطبق بيده دون أن ينظر إليها، ثم بدأ يأكل ببطء وكأنه يحاول إطالة الوقت، بينما فاطمة تقف بجانبه تنتظر أن تنتهي تلك اللحظات المشحونة بالكلمات غير المنطوقة.

وقف والدها سجاد فجأة، كأن كلمات الغداء توقفت في حلقه، ونظر إليها بنظرة جليدية تحمل قراراً لا رجعة فيه، وقال:
"أفكر أن أتزوج مرة أخرى."

كانت الكلمات تطفو في الهواء، ثقيلة وكأنها صخرة تُلقى في بحر هادئ. لم تستطع فاطمة أن تنبس بكلمة، فقد صدمتها المفاجأة وكأنها جدارٍ باردٍ يفصلها عن عالمها المألوف.

كان والدها يجلس أمامها، ولكنه بدا بعيدًا، غريبًا، مختلفًا عما اعتادت عليه. في عينيه لمعت رغبة جامحة، رغبة لم تسمعها من قبل، رغبة كانت تحذرها من أن حياتها ستتغير إلى الأبد.

حاولت أن تتجاهل تلك الكلمات، أن تركز على شيء آخر، لكنها لم تستطع. دفعت بالصحن قليلاً بعيدًا عنها، وشعرت بالفراغ ينمو داخل صدرها.

"لماذا؟" ترددت الكلمة على شفتيها، لكن لم تجرؤ على النطق بها، خشيت أن تنهار أمام ذلك القرار المفاجئ.

ابتسم والدها بابتسامة باردة، وقال:
"الزواج ضروري. الحياة تستمر، ونحن بحاجة إلى الاستقرار."

لكن في قلب فاطمة، كان الأمر أشبه بنهاية فصل جميل في حياتها، فصل تآكلت فيه الأحلام والأمان. عرفت أن القادم سيكون أكثر قسوة، وأنها ستُجبر على مواجهة واقع لم تختاره أبداً.

نظرت إليه فاطمة بعينين متسائلتين، صوتها خافت لكنه يحمل ثقل الحيرة والقلق:
"متى تخطب؟"

توقف والدها للحظة، كأنه يزن الكلمات قبل أن ينطقها. ثم أجاب بصوتٍ هادئ لكنه حاسم:
"خلال الأيام القادمة، ربما بعد أسبوع أو اثنين."

شعرت فاطمة ببرودة تسري في جسدها، كأن الوقت بدأ يضغط عليها من كل الجهات. لم تكن تعرف كيف تستقبل هذا الخبر، هل تفرح أم تحزن؟

لكن والدها لم يعطها فرصة للتفكير أكثر، فقد نهض من مكانه وقال:
"سأتحدث معك لاحقًا."

وبدون أن تترك مجالًا للمزيد من الأسئلة، خرج من الغرفة تاركًا خلفه صمتًا ثقيلاً يعمّ المكان.

استيقظت فاطمة ذلك الصباح على صوت خفيف من الطيور يغرد خلف النافذة، حاولت أن تمسك ببقايا حلم تلاشى قبل أن تستفيق تمامًا. رغم نور الصباح الذي حاول التسلل إلى غرفتها الصغيرة في بيت والدها المتواضع، كان شعورها مثقلاً بثقل لا تعرف مصدره، كأنها تحمل همومًا أكبر من عمرها. جلست على طرف السرير، أغمضت عينيها للحظات تحاول أن تجمع شتات نفسها، لكن الأفكار كانت تتصارع في رأسها بين ما مضى وما سيأتي.

نهضت ببطء، شعرت ببرودة الأرض تحت قدميها، تقدمت نحو النافذة، وتأملت الشارع الهادئ في حي الزعفرانية. الأطفال يلعبون بعيدًا، وأصوات الحياة اليومية تتسلل عبر الهواء، لكنها لم تجد في نفسها الرغبة في المشاركة. تنهدت عميقًا، ثم أخذت تجهز نفسها للذهاب إلى المدرسة، المكان الذي لم يعد بالنسبة لها سوى روتينٍ ممل تكرر يوميًا بلا جديد.

ارتدت ملابسها بعناية، حتى لو كانت بسيطة، وأعدّت حقيبتها التي تحوي كتبها ودفاترها، ثم وقفت أمام المرآة الصغيرة التي كانت تملكها، نظرت إلى عينيها ووجدت فيهما سؤالًا بلا جواب. لم تكن تعرف ما ينتظرها في ذلك اليوم، لكن شيئًا في قلبها يخبرها أن الأمور لن تبقى كما هي.

خرجت من غرفتها بهدوء، عبرت الصالة الخالية، وصعدت الدرج إلى الخارج حيث تنتظرها الشمس الباهتة وهدوء الصباح الذي يسبق فوضى الحياة. في طريقها إلى المدرسة، كانت تفكر في الدروس التي تنتظرها، في زملائها الذين تراهم كل يوم.

مرت الأسابيع ثقيلة كأنها أيام لا تنتهي، وكانت فكرة زواج والدها سجاد تزداد في رأس فاطمة كحجر ثقيل لا تستطيع التخلص منه. كلما اقترب موعد الزواج، كان قلبها يخفق بشدة، يتملكه خوف وحزن عميق لا تستطيع التعبير عنه.

قبل أسبوع من الزواج، قررت فاطمة أن تواجه والدها. دخلت غرفته، وقفت أمامه بعينين مملوءتين بالدموع، وحاولت أن تجمع كلماتها بين ألم الرفض وصدق المحبة.

قالت له بصوت يختنق: "أبي، لا أستطيع أن أقبل بهذه الفكرة، لا أريدك أن تتزوج. أخاف أن تتغير حياتي أكثر مما هي عليه... أخاف أن تكون المرأة الجديدة قاسية كما تخاف أنت، وأن أفقدك أنت أيضًا."

نظر إليها سجاد ببرود، لكنه لم يغلق الباب أمام حديثها. قال: "فاطمة، أنت لا تفهمين حجم المسؤولية التي عليّ. هذه خطوة لا مفر منها، ويجب عليكِ أن تقبليها."

لكن فاطمة لم تستسلم، قالت: "أنا لست صغيرة، وأعرف أن الحياة ليست سهلة، لكن قلبي لا يريد هذا الزواج. أريد فقط أن تبقى معي، أن تبقى أبي."

وبين لحظة وأخرى، بدأت الأصوات في قلبها ترتفع، تشتد، وكأنها تئن تحت وطأة قرار لم يكن من اختيارها. ومع ذلك، أدركت أن والدها مصمم، وأنها قد تضطر إلى قبول واقع لم تريده، لكن ذلك لم يمنعها من التعبير عن خوفها ورفضها بصراحة.

قال سجاد بنبرة صارمة وحازمة، كأنه يضع حدًا نهائيًا لكل نقاش:
"ستقبلين هذا، شئتِ أم أبيتِ. هذا قراري، ولن أتراجع عنه مهما قلتِ أو فعلتِ."

كان صوته خاليًا من أي رحمة، وكأن هذه الكلمات كانت حكمًا نهائيًا في حياة فاطمة، أشبه بحكم السجن المؤبد على روحها.

تنفّست فاطمة بعمق، تحاول أن تسرق لنفسها لحظة من الشجاعة، ثم قالت بثقة لكن مفعمة بالألم:
"لو تزوجت، لن أبقى في هذا البيت. سأرحل، سأبحث عن أي مكان آخر بعيدًا عنك، بعيدًا عن هذا الألم الذي أشعر به الآن. لا أستطيع أن أقبل أن أعيش وسط كراهية وصمت ثقيل يخنقني."

تجمّدت الكلمات في الهواء بينهما، كأنها شرارة تهدد بإشعال عاصفة داخل هذا البيت البارد.

نظر إليها والدها بعيون لا تخلو من قسوة، لكنه كان يعلم أن هذه المواجهة قد تكون بداية لتمردها، أو حتى انكسارها.

قال بهدوء مريب، كمن يرسم حدودًا لا يمكن تخطيها:
"الحياة لن تكون سهلة، لكنكِ مضطرة لتحمّلها. لا شيء سيغير هذا الواقع."

وقفت فاطمة صامدة رغم الخوف والضيق الذي يعتصر قلبها، مدركة أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد، وأن طريقها سيكون مليئًا بالصراعات التي ستختبر حدود صبرها وقوتها.

قال سجاد بحدة وصرامة في صوته:
"وإذا لم ترغبين بهذا حقًا، سأضعكِ في دار الأيتام."

توقفت فاطمة للحظة، تزن كلمات والدها في عقلها، تشعر بثقل الموقف يضغط على صدرها. رغم الخوف والضياع، لم تجد أمامها خيارًا آخر.
تنهدت ببطء ثم نظرت إليه بعينين هادئتين لكن مملوءتين بالحزم، وقالت بصوت منخفض ومتماسك:
"حسنًا... سأوافق."

قال سجاد بنبرة صارمة ومليئة بالحزم:
"حسنًا، لكن لا يمكنكِ التراجع بعد الآن. هذا القرار ليس مجرد كلام عابر، بل هو خطوة حاسمة ستحدد مستقبلك. لا مجال للعودة أو التراجع عنه، لأنه مهما حدث، هذا ما هو مقدر لكِ."

تردد صدى كلماته في أذني فاطمة، وجعل قلبها ينبض بقوة مختلطة بالخوف والحزن. كانت تعلم أن والدها لا يمزح، وأنه لا يفكر سوى في مصلحته هو، دون أن يلتفت لمشاعرها أو رغباتها.

نظرت إليه بعينين دامعتين، لكنها لم تجد ما تقول، ولم تستطع أن تعارضه. كان القرار قد اتُخذ بالفعل، والآن عليها أن تقبل به مهما كلفها الأمر.

في لحظة صمت ثقيل، شعرت فاطمة وكأنها تغوص في دوامة لا نهاية لها من الألم والخذلان، وكل ما تريده هو الهروب من كل هذا، لكن الكلمات التي نطق بها والدها كانت مثل حائطٍ منيع أمام أي حلم بالحرية.

في نفس اليوم، وبعد انتهاء حديثه مع فاطمة، اتصل سجاد بصديقه المقرب عبر الهاتف، وقال له بصوت حازم:
"أرجو أن تبحث لي عن دار أيتام مناسبة في البصرة أو القريب منها، تكون فيها الظروف ملائمة وصارمة، حتى لا تخرج الفتاة عن السيطرة."

ثم أضاف:
"الأمر عاجل ولا يحتمل التأجيل، فلتتصرّف بسرعة ولا تؤخر الموضوع."

كان صديقه يفهم جدية الموقف، ووعده بأن يبذل جهده في البحث والترتيب.
أما سجاد، فغمره شعور بثقل القرار الذي اتخذه، وعرف أن حياة ابنته على وشك أن تتغير إلى الأبد.

بدأ صديقه بحثه بشكلٍ مكثف، اتصل بكل دور الأيتام في المدينة والمناطق المجاورة، من المراكز الحكومية إلى الخاصة، وكل مكان يُحتمل أن يكون ملجأً لفاطمة. كان يشرح وضع الفتاة، عمرها، وحالتها الاجتماعية، ولكن الردود لم تكن كما توقع.

بعض الدور قالت إنها ممتلئة تمامًا، ولا يمكنها استقبال أحد جديد. ودور أخرى ذكرت أن الفتاة بحاجة إلى أوراق رسمية أو كفيل، وهو ما لم يتوفر بسهولة. في أماكن أخرى، كانت هناك أسباب غامضة وغير واضحة للرفض، وكأن هناك شيئًا يمنعهم من قبولها.

لم يكن الأمر مجرد بحث عن مكان، بل كان كأن هناك حاجزًا خفيًا يمنع وصولها إلى أي ملجأ. الأيام تمر، وصديقه لا يكلّ ولا يملّ من الاتصالات والمراسلات، لكنه يعود في كل مرة بخيبة أمل أكبر.

ذات مساء، عاد إلى سجاد، وجهه مُثقل بالإرهاق والاحباط، وأخبره: "لقد حاولت بكل الطرق، لكن لا يوجد مكان يقبلها. الأمر أكثر تعقيدًا مما ظننت."

صمت سجاد للحظة، تتجمد كلماته في الحلق، لكنه استجمع قوته وقال بصوت ثابت وحازم: "لن أتركها تعاني وحدها. إن لم نجد دارًا، سنتخذ خيارًا آخر، مهما كان الثمن."

.. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهرًا، حين عادت فاطمة من المدرسة تحمل حقيبتها الثقيلة على كتفها. دخلت المنزل المتواضع بهدوء، حيث كان والدها، سجاد، جالسًا في غرفة المعيشة يراقبها بنظرة شاردة. همس بصوت منخفض وكأنه يعيد كلمة لاذعة في ذهنه: "تعليم..."

وبشكل مفاجئ خطرت له فكرة، لم يكن ليرتاح لها قلبه لكنه اعتبرها الحل الأسهل، قال وهو ينظر إليها: "ما رأيك بمدرسة داخلية؟"

توقفت فاطمة عن وضع حقيبتها، نظرت إليه بتعجب، ثم قالت بصوت خافت: "مدرسة داخلية؟ ماذا تقصد؟"

ابتسم سجاد ابتسامة لا تخلو من قسوة وقال: "مكان بعيد، بعيد عن البيت... حيث تستطيعين أن تركزي على دراستك دون إزعاج."

كان في صوته نبرة تأكيد لا تقبل النقاش، وبدا وكأنه قد اتخذ قراره منذ زمن، منتظرًا فقط أن يعلنها لها.

بعد أن أنهى حديثه مع فاطمة، استدار سجاد باتجاه هاتفه المحمول الجالس على الطاولة، وأخرج الجهاز ببطء.

رفع السماعة وبدأ بالاتصال على صديقه.

بعد أن رد الصديق على المكالمة، قال سجاد بصوت هادئ لكنه حازم:
"أحتاج منك أن تبحث لي عن مدرسة داخلية للبنات، تكون في منطقة بعيدة، ومناسبة لفاطمة... لا بد أن تكون المدرسة صارمة، لا يسمح بالخروج أو الزيارات، ولا يُسمح بإدخال الهواتف."

صمت للحظة، ثم أضاف:
"أريد أن تكون بعيدة عن البصرة، حيث لن تكون هناك وسيلة للهروب أو التواصل مع الخارج."

أنهى المكالمة وهو يشعر بثقل القرار الذي اتخذه، لكنه لم يكن يرى أمامه خيارًا آخر.

بعد إغلاق الهاتف، جلس سجاد على كرسيه يفكر مليًا في الخطوة القادمة. كان يعلم أن هذا القرار قد يغير حياة ابنته إلى الأبد، لكنه اعتقد أن ذلك سيكون أفضل من استمرار الصراعات داخل المنزل.

في اليوم التالي، بدأ صديقه بالبحث عن مدارس داخلية تناسب المواصفات التي طلبها، وتوصل إلى بعض المدارس في كردستان، بينها مدرسة داخلية للبنات في دهوك تُعرف باسم "زيركان".

أخبره الصديق أن المدرسة تقع في منطقة جبلية نائية، ويُمنع فيها دخول الهواتف، ولها سمعة صارمة جدًا، ولا تسمح لأحد بالخروج أو الزيارة إلا في حالات نادرة.

كانت هذه المدرسة تبدو مثالية من حيث شروط سجاد، لكن لم يكن يعلم ما ينتظر فاطمة داخل جدرانها.

وبينما تتجه الأيام، لم يكن يعلم أن هذا القرار سيغرق ابنته في عالم مظلم وغامض لا يشبه أي شيء عرفته من قبل.

مع اقتراب موعد الانتقال، أصبح قلب فاطمة يعج بمشاعر متضاربة. لم تكن تعرف ما ينتظرها في ذلك المكان الجديد، في دهوك، بعيدًا عن كل ما اعتادت عليه في الزعفرانية بالبصرة. كانت تعيش في دوامة من القلق والخوف والرتابة التي تملأ أيامها الأخيرة في البيت القديم.

كل ليلة، كانت تستلقي على سريرها تحدق في سقف الغرفة، تحاول أن تصالح نفسها على هذا القرار. كانت تكرر في ذهنها: "لقد اخترتُ الابتعاد، وإن كان الخوف يملأني، فإن الابتعاد عن هذا البيت قد يكون بداية جديدة، بداية لحياة مختلفة." لكن رغم ذلك، لم تستطع أن تخفي ذاك الألم الذي ينغرس في قلبها، ذلك الشعور بالوحدة والبعد عن كل ما تحب.

وفي النهار، كانت تساعد في ترتيب أمتعتها، تختار ما تحتاجه وتودع ما تركته خلفها. كانت تتنهد في صمت كلما نظرت إلى أغراضها البسيطة، تودع أثاث غرفتها، جدرانها، وحتى الذكريات التي حفت بها.

مرت الأيام كأنها حلم ثقيل. كانت تراودها أفكار كثيرة، هل ستجد في ذلك المكان الجديد أصدقاء؟ هل ستشعر بالأمان؟ وهل سيغير هذا الانتقال من حياتها إلى الأفضل؟

لكن في قلبها، كانت تعرف أنها لا تملك خيارًا آخر. فكل شيء أصبح واضحًا، لا مهرب من ذلك القرار. كانت مستعدة، على الأقل ظاهريًا، لمواجهة ما سيأتي.

حتى جاء اليوم الذي حان فيه موعد الرحيل. استيقظت مبكرًا، نظرت عبر النافذة إلى السماء الرمادية، وأحست بشيء من الحزن يخنقها. جمعت ما تبقى من قوتها وأغلقت باب المنزل الذي عرفها، ذلك الباب الذي لم يعد يحتمل وجودها بعد الآن.

ركبت السيارة برفقة والدها، ولم تستطع منع دموعها من السقوط، دموع الخوف والحنين والغموض الذي يحيط بالمستقبل المجهول.

ومع تقدم ساعات النهار، وتوالي المشاهد من خلال نافذة السيارة، وصلا أخيرًا إلى وجهتهما عند الساعة السادسة مساءً. الهواء كان مختلفًا؛ أبرد وأثقل، يلف المكان بسكون غريب لم تعتد عليه فاطمة.

توقفت السيارة أمام مبنى قديم يبدو وكأنه يحمل بين جدرانه أسرار الزمن، واجهة حجرية عتيقة ونوافذ ضيقة تحيط به. كان المبنى شامخًا لكنه يحمل هالة من الغموض، لم يكن يشبه أي مدرسة عرفتها من قبل، لا من حيث الشكل ولا الأجواء التي تحيط به.

نزلت فاطمة من السيارة، تحمل حقيبتها على كتفها، ورفعت عينيها لتنظر إلى المبنى الكبير، وهو ما سيكون موطنها الجديد، مدرسة زيركان الداخلية للبنات.

وقف والدها قليلاً بجانبها، ثم قال بصوتٍ خافت لكنه حازم: "هنا مكانك الآن، وسينبغي عليكِ أن تكوني قوية."

شعرت فاطمة بقشعريرة تسري في جسدها، نظرت إلى الباب الكبير الذي كان مغلقًا بإحكام، وتسلل إلى قلبها إحساس بأن هذه البداية ليست كباقي البدايات...

غادر والدها بسرعة، خطواته تتلاشى في صمت المساء البارد، تاركًا فاطمة واقفة وحدها أمام البوابة الضخمة التي لا تكاد تتسع لجسدها النحيل. كان الحديد القديم يصدأ ببطء، وعليه نقوش غريبة تعطي إحساسًا بالقدم والغموض، كأنها بوابة لعالم مختلف لا علاقة له بالواقع الذي عرفته فاطمة طوال حياتها.

تقدمت ببطء نحو الباب، يدها ترتجف قليلاً وهي تلامس الخشب البارد. طرقت الباب بخفة في البداية، صوت طرقها يتردد في الفضاء الواسع كأنما يحاول أن يوقظ شيئًا مستقرًا في ظلال هذه الجدران العتيقة. كانت تنتظر ردًا، لكن السكون كان يحيط بها من كل جانب، وكأنه يحاصرها.

عندما طرقت مرة ثانية، كانت أنفاسها مسموعة بوضوح، والخوف يختلط بفضول لا تعرف له سببًا. حولها، لم يكن هناك أي حركة، إلا طيف من نسيم بارد مرّ بين الأعمدة الحجرية، حاملاً معه رائحة عتيقة كأنها تنبعث من أعماق الماضي.

فجأة، ظهر ظل على النافذة الصغيرة بجانب الباب، يتحرك ببطء وكأنه يراقبها. قلبها دق بعنف، لكن شيئًا داخليًا دفعها للاستمرار. طرقت الباب مرة ثالثة، هذه المرة بقوة أكبر، وارتجف جسدها كله وهي تنتظر.

لحظة الانتظار بدت وكأنها دهر، حتى تحركت فجأة فتح الباب بصرير مخيف، كأنه ينفث صرخة مختنقة، ليكشف عن ممر مظلم يبتلع النور خلفه.

كانت المعلمة التي فتحت الباب امرأة في منتصف الأربعينيات، ترتدي عباءة داكنة، وعيناهما تحملان وهجًا غريبًا يصعب تفسيره. ابتسمت ابتسامة هادئة لكنها باردة، وقالت بصوت منخفض مليء بالغموض:

"أهلًا بكِ في مدرسة زيركان الداخلية، فاطمة. لقد كنا ننتظركِ."

كانت كلمتها تبدو كأنها تحوي أكثر مما تعنيه، وكأنها تحذر دون أن تقول.

دخلت فاطمة المدرسة بخطوات هادئة، تغمرها مشاعر مختلطة بين القلق والترقب، لكنها حاولت أن تخفي توترها خلف هدوء ظاهر. كان الممر واسعًا بطوله، وأرضيته من البلاط القديم اللامع الذي يعكس أضواء المصابيح الخافتة فوقها. الجدران مغطاة ببعض اللوحات الزيتية الباهتة، تحمل وجوهًا نسائية لا تعرفها، وألوانها المطفأة تعطي إحساسًا بعراقة المكان وأصالة تاريخه.

تلفتت فاطمة حولها بانتباه، لاحظت أن رائحة المكان تحمل نفحة قديمة ممزوجة برائحة الخشب المعتق، كما لو أن جدران المدرسة تحوي أسرارًا دفينة لا يريد أحد الكشف عنها. لم تسمع صوتًا سوى خطواتها المترددة تردد صدى خفيفًا في أرجاء الممر.

مرّت أمام صفوف طويلة من الأبواب الخشبية، بعضها مغلق بإحكام وبعضها الآخر مفتوح على مصراعيه، لكن الغرف بداخلهن خالية تقريبًا، فقط مقاعد وطاولات مصطفة بعناية، وكأن المكان ينتظر من يملأه بالحياة.

كانت تلمح من بعيد بعض الطالبات جالسات على المقاعد، يتحدثن بهدوء ويضحكن بين الحين والآخر، وكانت تلك اللحظات تمنحها قليلًا من الاطمئنان. اقتربت من إحدى المعلمات التي بدت عليها ملامح الجدية والصرامة، تلقت ترحيبًا هادئًا وكلمات دافئة لكنها رسمية: "أهلاً بكِ يا فاطمة، هذه غرفتكِ، يمكنكِ أن تترتبي فيها، وإذا احتجتِ أي شيء، فأنا هنا للمساعدة."

لم تشعر فاطمة بأي تهديد أو غموض في تلك اللحظة، بل شعرت كما لو أنها أمام بداية صفحة جديدة من حياتها، صفحة عليها أن تكتبها بنفسها رغم ما تحمله من أحمال وأسرار. ولكن، لم تكن تدري أن هذه الجدران التي تحيط بها تخفي ما هو أبعد من مجرد تاريخ قديم، وأن خطواتها القادمة ستقودها إلى عالم أكثر ظلمة وتعقيدًا مما تصورت.

ما إن دخلت فاطمة غرفتها، جلسَت بهدوءٍ كما لو أن كل شيءٍ في العالم طبيعيٌ وسلسٌ، ولكن ما كان يدور خارج باب غرفتها لم يكن أبداً بهذا الهدوء. في ذلك الوقت، كانت إحدى المعلمات قد فقدت فجأة السيطرة على جسدها بطريقة مرعبة. بدأ جسد المعلمة يتحرك بلا إرادة، وأطرافها تتلوى كما لو أن قوة مظلمة تسيطر عليها.

تحركت ببطء، خطواتها كانت بطيئة لكنها مصممة، وتوجهت نحو السلم الذي يؤدي إلى الطابق الخامس المحظور، ذلك الطابق الذي يُقال إنه مسكون بالأرواح ولا يجوز لأحد الصعود إليه. يداها تهتز من دون تحكم، وقدمها تضعها خطوة تلو أخرى، بصمتٍ مخيف لا يكسره إلا صدى وقع خطواتها البطيئة على الأرضية القديمة.

بينما كانت تتجه نحو الأعلى، بدأ الهواء يزداد برودة وكأن الظلام يتعمق في كل زاوية. لم يكن هناك أي صوت سوى أنفاسها المتقطعة، وارتعاش جسدها الذي بدا وكأنه مسرح لقوة خارقة لا تُرى.

داخل غرفتها، فاطمة لم تكن تشعر بشيء من هذا، ولم تلاحظ أي حركة أو غموض. كانت تستند إلى طاولة صغيرة، تتصفح كتباها وتعدّ دروسها، غير مدركة لما يجري خلف الباب المغلق. كأنها محاطة بحاجز لا يسمح لها أن تشعر بالعالم الحقيقي الذي يحيط بها.

ومع حلول الساعة الثامنة مساءً، بينما كانت فاطمة لا تزال جالسة في غرفتها تراجع دفتر ملاحظاتها في هدوء، دوّى طرق خفيف على بابها الخشبي. رفعت رأسها ببطء، ونظرت إلى الباب وقد لاحظت ظلالًا خفيفة تنعكس من أسفل الفراغ تحته، وصوت فتاة من خلفه ينادي بنبرة هادئة لكنها خالية من الدفء:

"لقد حان وقت العشاء، يُرجى النزول إلى قاعة الطعام."

وقفت فاطمة على قدميها بتردد بسيط، ثم توجهت نحو الباب وفتحته ببطء. أمامها وقفت فتاة ترتدي زي المدرسة الداكن، شعرها مربوط بإحكام، ووجهها جامد كأن ملامحه نُحتت في الصخر، لا ابتسامة، ولا ترحيب، فقط نظرة خالية تنتظر.

قالت فاطمة: "شكرًا، سآتي حالًا."

أومأت الفتاة برأسها دون أن تنطق، ثم استدارت وغادرت بنفس الخطى المنتظمة، وكأنها تسير على إيقاع غير مسموع. أغلقت فاطمة الباب خلفها ببطء، وزفرت دون أن تدري لماذا شعرت بثقل طفيف في صدرها... لكنها عزت الأمر إلى التعب والانتقال المفاجئ، ثم التقطت سترتها وخرجت متجهة إلى قاعة الطعام، دون أن تعلم أنها تقترب أكثر فأكثر من قلب الغموض.

نزلت فاطمة الدرجات الحجرية الباردة المؤدية إلى الطابق الأرضي، وكلما اقتربت من قاعة الطعام، بدأت تسمع ضجيجًا خافتًا يعلو تدريجيًا، ضحكات مكتومة، أصوات ملاعق تضرب الصحون، وهمسات لا تُميز كلماتها بوضوح.

وعندما وصلت إلى مدخل القاعة، توقفت لحظة... فتحت عينيها بدهشة خفيفة.

كانت القاعة كبيرة بشكل لم تتوقعه، مضاءة بأضواء خافتة تميل إلى الصفرة، والجدران مغطاة بصور قديمة لطالبات سابقات ومعلمات بملامح صارمة. أما الطاولات، فكانت ممتدة على صفوف طويلة، تجلس إليها عشرات الطالبات يرتدين الزي ذاته، يتناولن طعامهن في صمت أو يتهامسن بأصوات منخفضة.

تقدّمت فاطمة بخطى مترددة، وهي تشعر بنظرات البعض تلاحقها، وإن كانت سرعان ما تختفي حين تنظر إليهن مباشرة. لا أحد بادرها بالحديث، ولا حتى بابتسامة، فقط مقاعد ممتلئة وطعام أمام كل فتاة، وهدوء مريب يقطعه بين حين وآخر صوت سعال أو احتكاك كرسي بالأرض.

لمحت في الزاوية البعيدة طاولة صغيرة يبدو أنها مخصصة للطالبات الجدد، كانت فارغة. توجهت نحوها وجلست، ثم لاحظت أن طبقًا قد وُضع أمامها بالفعل... لكنها لا تتذكر أن أحدًا أتى به.

نظرت حولها مرة أخرى، وفي قلبها سؤال ثقيل بدأ يتشكل، لكنها تجاهلته... وبدأت في تناول لقمتها الأولى.

وبينما كانت فاطمة ترفع الملعقة بهدوء، تحاول التظاهر بأن كل شيء طبيعي، جاء الصوت همسًا ناعمًا وقريبًا جدًا من أذنها:

"اسمي سحر."

تجمدت يدها في منتصف الطريق إلى فمها، وأدارت رأسها ببطء. لم تكن قد انتبهت أن أحدًا جلس بقربها، لم تسمع صوت كرسي يتحرك، ولا خطوات تقترب. ومع ذلك، ها هي الآن، فتاة بشعر أسود ناعم يغطي نصف وجهها، وعينان واسعتان تلمعان في الضوء الخافت.

قالت فاطمة بتردد:
"مرحبًا... أنا فاطمة."

ابتسمت سحر ابتسامة صغيرة، دون أن تُظهر أسنانها، وكأنها تخفي شيئًا خلف الشفاه.
"أعلم... الجميع يعرف أنكِ الجديدة."

نظرت فاطمة إليها باستغراب، فهذه أول مرة تراها، ومن المفترض أن لا أحد يعرفها بعد. لكن سحر تابعت بصوت منخفض وكأنها تخشى أن يسمعها أحد:
"هل أعجبكِ الطعام؟"

فاطمة نظرت إلى طبقها ثم عادت بنظرها إليها، وقالت بلباقة:
"إنه... مختلف قليلاً. لكن لا بأس به."

أومأت سحر برأسها ببطء، ثم مالت نحوها قليلاً وهمست:
"إذا شعرتِ يومًا أن الأمور هنا غريبة... لا تسألي. فقط تظاهري بأنكِ لا تلاحظين."

ارتعشت فاطمة للحظة، لكنها حاولت أن تضحك لتخفف التوتر:
"ماذا تقصدين؟ هل هذه مزحة ترحيب؟"

ابتعدت سحر ببطء، ثم قالت بنبرة أكثر هدوءًا، وهي تحدق في طبقها:
"فقط كوني ذكية... النجاة هنا تبدأ بالصمت."

ثم بدأت تأكل، وكأن شيئًا لم يُقال. أما فاطمة، فقد شعرت أن لقمتها التالية أصبحت أثقل بكثير مما توقعت.

ومع انتهاء العشاء، وبينما كانت فاطمة تهمّ بالوقوف من مقعدها، اقتربت منها فتاة ببشرة ناعمة وعينين واسعتين، تبتسم ابتسامة مشرقة، كأنها تعرف فاطمة منذ زمن. مدت يدها مباشرة نحوها، وقالت بصوت خفيف:

"مرحبًا، أنا فرح. سعيدة بلقائك!"

ترددت فاطمة للحظة، ثم مدت يدها لتصافحها، لكنها ما إن لامست يد فرح حتى شعرت بشيء غريب... لم تكن هناك حرارة، ولا برودة، لا نعومة ولا خشونة... لم تشعر بشيء على الإطلاق. كأن يد فرح لم تكن موجودة.

حدّقت في يدها للحظة، ثم نظرت إلى وجه الفتاة التي لا تزال تبتسم بهدوء. حاولت فاطمة إخفاء ارتباكها، وقالت بصوت منخفض:

"وأنا فاطمة... تشرفت."

ضحكت فرح بخفة، وقالت وكأن شيئًا لم يحدث:
"ستحبين المدرسة. قد تكون غريبة بعض الشيء، لكنكِ ستتعودين."

ابتسمت فاطمة ابتسامة باهتة، بينما عقلها ما زال يحاول تفسير ما شعرت به — أو بالأحرى، ما لم تشعر به — قبل لحظة.

وفجأة، دوّى صوت حاد من نهاية القاعة، فتسمرت الطالبات في أماكنهن، والتفتت فاطمة برأسها بسرعة لترى إحدى المعلمات تتقدم بخطى ثابتة، نظراتها صارمة كأنها تخترق النفوس.

قالت بصوت جهوري، دون أن ترمش:

"الدرس سيكون في تمام الساعة الثامنة صباحًا. لا أريد أن تتأخر أي واحدة منكن. الفتاة التي تتأخر... ستندم."

ساد الصمت في القاعة، وتلاشت الابتسامات، حتى فرح بجانب فاطمة أنزلت عينيها بهدوء. شعرت فاطمة بقشعريرة خفيفة تسري في ظهرها، لكنها تمالكت نفسها وتظاهرت بأنها لم تتأثر، رغم أن شيئًا في صوت المعلمة... لم يكن طبيعيًا.

تابعت المعلمة السير، وعبَرت بين الطاولات بخطوات بطيئة، ثم خرجت من القاعة كما دخلت — فجأة، وبصمت ثقيل.

وما إن التفتت فرح لتصعد السلالم، لحقت بها فاطمة بخطى هادئة، التفتت بنصف جسدها نحو القاعة كما لو كانت تلقي نظرة أخيرة، ثم غادرت بصمت، تصعد الدرج ببطء نحو الطابق المخصص لغرف الطالبات.

وفي اللحظة التي اختفت فيها فاطمة عن مرمى النظر، كانت فتاة في نهاية القاعة لا تزال جالسة على المقعد الخشبي. فجأة، شهقت شهقة خفيفة، ثم تثاقلت رأسها جانبًا وكأن خيطًا غير مرئيًا قد قُطع بداخلها.

عيناها انقلبتا للأعلى للحظة، ثم فتحتا من جديد، لكن نظرتها لم تكن كما كانت.

بدت وكأنها تنظر من وراء جسدها، كأن كيانًا آخر حلّ محلها. بدأت تتحرك... لا، لم تكن تتحرك بل تُحرّك. أطرافها تتحرك بزوايا غير منطقية، أصابع يديها ترتجف، وعظام كتفيها تصدر صوت طقطقة خفيف.

قدماها سارتا للأمام خطوة، ثم انحرفت خطواتها نحو الجدار، كأن جسدها لا يعي الاتجاه.

القاعة كانت فارغة.
وسكون ما بعد العشاء، ابتلع كل شيء.

وبينما كانت فاطمة تستعد للنوم، وقد وضعت رأسها على الوسادة، التقط سمعها صوتًا خافتًا يتسلل من خلف الجدار الحجري البارد.

همسات متكررة... كلمات غير مفهومة... ولكن بنغمة مألوفة. بدا كأن أحدًا يردد صلوات.

رفعت رأسها، جلست، وأرهفت السمع.

كان الصوت أشبه بصوت جماعة تصلّي... سجود، ركوع، وتكرار لعبارات كأنها أذكار.

عبست قليلًا وهمست لنفسها:

"يبدو أنهن يصلّين... ربما بعض المسلمات هنا يُقمن صلاة "

لكنّ شيئًا في طريقة ترديد الكلمات جعل الحيرة تتسلل إلى عقلها. الكلمات لم تكن عربية... أو على الأقل، لم تكن مفهومة تمامًا. وكان في نبرتها شيء غريب... شيء غير مريح.

هزّت رأسها محاولة طرد تلك الأفكار، وابتسمت ابتسامة متوترة:

"أنا فقط متعبة... غدًا أول يوم دراسة، لا مجال للخيال."

ثم تمددت على السرير مجددًا، تُقنع نفسها أن ما سمعته مجرد صلاة... صلاة لا تعنيها.

لكنها لم تستطع النوم بسهولة، فقد ظلّ ذلك الصوت الغريب يدور في ذهنها كصدى لا ينقطع. ساعات الليل الطويلة مرّت ثقيلة، حتى غلبها النوم أخيرًا في منتصف الليل.

في حلمها، وجدت نفسها في ممرات المدرسة المظلمة، حيث الجدران تتنفس كأنها حية. كان الظلام يبتلع كل شيء حولها، لا ترى سوى ضوء باهت ينبعث من لوحة زيتية معلقة على الحائط، تتغير ملامحها ببطء، حتى اختفت عيناها وانسكب دم أسود منها.

سمعت خطوات بطيئة فوق رأسها، لكنها لم تجرؤ على النظر للأعلى. صوت همسات غامضة تعلو، تردد كلمات غير مفهومة، تتخللها نوبات ضحك باردة، كأنها تخرج من أعماق الجحيم.

وحين حاولت الصراخ، لم يخرج منها سوى همسات مبحوحة، كما لو أن الهواء نفسه خانها.

استيقظت فجأة، عرقان، وقلبها ينبض كالمجنون، لترى غرفة نومها ساكنة وهادئة، لكن ظل الرعب ظل يرافقها حتى بعد أن فتحت عينيها.

خرجت فاطمة من غرفتها بحذر، كل خطوة تخطوها تخترق صمت الممرات المهجورة، والهواء البارد يلتصق بها كأنه ظل قاتم لا يفارقها. كانت أنفاسها تنساب بخفة في هذا الجو المشحون، كأن كل حركة تُحدث صوتًا مزعجًا في هذا السكون الذي يخيم على المدرسة.

توجهت نحو صنبور المياه القديم المثبت على جدار الممر، شعرت بوخز غريب في قلبها، لكنه لم يمنعها من محاولة تهدئة أعصابها التي بدأت تتوتر مع مرور الوقت. ضغطت على الصنبور لتنساب قطرات الماء الباردة، وأخذت ترتشفها ببطء، تحاول أن تبعد الأفكار السوداء التي تملأ ذهنها.

لكن الطعم الذي ذاقته لم يكن كما توقعت، كان مراً وغريباً، كأنه يخبئ خلفه شيئاً لا يمكن تفسيره، طعماً معدنياً ثقيلاً، وكأن الماء نفسه يعاني من لعنة لا تراها العيون. أغمضت عينيها للحظة، محاولة أن تتجاهل ذلك الطعم المر، لكن شعوراً غريباً بدأ ينتشر في جسدها، وكأن الماء يحمل في طياته شيئاً أكثر من مجرد سائل.

وقفت لحظة، تستند إلى الحائط لتثبت توازنها، تحاول أن تتنفس بعمق، وأن تجمع شتات نفسها في هذا المكان الذي لم يعد يشبه بيتها أو مدرستها القديمة في البصرة. حاولت أن تبرر كل ما تشعر به، وقالت في سرها: "ربما هو تعب اليوم، أو قلة النوم... لا شيء أكثر من ذلك."

لكن خلف جدران المدرسة، في الظلام، كانت الأصوات الخفية تهمس، والظلال تتحرك ببطء، وكأنها تراقب كل خطوة تخطوها فاطمة، تنتظر اللحظة المناسبة لتكشف عن أسرارها السوداء.

ثم ما إن التفتت، رأتهنّ تقف أمامها كما لو أن الظلام نفسه قد تجسد في صورة فتاة واحدة، والصدمة التي أصابتها كانت كصاعقة برق مفاجئة اخترقت كل أعصاب جسدها، جعلت قلبها ينبض بشدة كأنه يريد أن ينفجر من صدورها. عيون الفتاة كانت خاوية، بلا بريق حياة، لكن فيها شيئًا غامضًا وكأنها نافذة لعالمٍ آخر مظلمٍ بارد، يلفه غموض لا يُفسر.

وقفت فاطمة مشلولة، تنظر إلى تلك الكائنات التي لا تشبه البشر، تحمل وجوهًا باهتة بلون الرماد، وجلودها شاحبة وكأنها قد خرجت من قبرٍ مهجور منذ قرون. لم يكن الصوت موجودًا، لكن صمت المدرسة الموحش كان يصرخ في أذنيها، وكأنها تسمع همسات الأرواح التي تئن خلف الجدران. الهواء من حولها أصبح ثقيلاً، وكأن كل جزيء فيه مشحون بلعنات قديمة.

بدأ الظلام يلتف حولها مثل عباءة باردة، والبرودة تتسلل إلى عظامها كإبرة دقيقة تخترق لحمها، وجسدها بدأ يرتجف دون إرادتها. تملكتها حالة من الرعب العميق، رعب ليس له تفسير، رعب لا يمكنه إلا أن ينبع من أعماق المجهول الذي يحيط بها.

ثم فجأة، كما لو أن تلك اللحظة كانت جزءًا من حلم سيء، اختفت الفتاة، تاركة خلفها هواءً معتمًا وهدوءًا يبعث على القشعريرة، وصدى الخوف الذي ظل يرن في أذني فاطمة، وظلّ قلبها يئن من شدته في صمت تلك الليلة المظلمة.

عادت فاطمة إلى غرفتها بخطوات ثقيلة، تكاد لا تفرق بين ما رأته وما تتخيله. كان الظلام ما يزال يغلف الزوايا، لكن سريرها بدا وكأنه الملاذ الوحيد من كل ذلك الرعب. ألقت بجسدها المنهك فوقه، وما إن أغمضت عينيها حتى اجتاحها كابوس آخر، أشد ظلمة من سابقه.

رأت نفسها داخل ممر طويل، الجدران تئن من همسات لا تُفهم، والأرض مغطاة بكتابات غريبة تنزف من الحبر الأسود. كان هناك كيان لا شكل له، يمشي خلفها، خطواته لا تُسمع، لكنها تُشعر بها، ثقيلة، باردة، مثل أنفاس الموتى. كلما حاولت الجري، أصبحت الأرض أبطأ، وكأن الزمن نفسه ينقلب ضدها.

ثم لم تعد الأحلام أحلامًا. أصبحت تراه، الجنّ، أو ما يشبه الجنّ. يدخلون إلى عقلها دون استئذان، يهمسون بلغات غريبة، بلغة الروح القديمة، يزرعون رموزًا في قلبها لن تفهم معناها إلا حين يفوت الأوان.

وفجأة...

رن جرس في البعيد، صوت واقعي يكسر حاجز الكابوس. فتحت عينيها، أنفاسها متقطعة، وعرق بارد يغطي جبينها. التفتت نحو الساعة، وإذا بها تشير إلى السابعة تمامًا صباحًا. كانت الغرفة ساكنة، الصمت يخيّم على كل شيء، لكن في قلبها، شيء ما تغير... وكأن الليلة الماضية لم تنتهِ بعد.

بدأت رائحة الخبز الساخن والبيض المسلوق تنتشر في أرجاء الطابق، وكان صوت الملاعق على الأطباق يمتزج بضحكات الفتيات وهمساتهن المتداخلة. في قاعة الطعام الكبيرة، جلست الطالبات في صفوف مرتبة على طاولات خشبية طويلة، يتناولن إفطارهن الصباحي في أجواء بدت عادية، بل روتينية.

كانت الفتيات يتحدثن بأحاديث خفيفة، عن الحصص القادمة، وعن المعلمات، وحتى عن الطقس البارد الغريب في هذا المكان. البعض كانن يتبادلن السندويشات، وأخريات يتهامسن بأحاديث سرية، كأن شيئًا ما يدور خلف الابتسامات.

دخلت فاطمة القاعة بخطى مترددة، تمسكت بحقيبتها لبعض الوقت قبل أن تلمح سحر، الفتاة التي تحدثت إليها ليلة أمس، تشير إليها بابتسامة صغيرة للجلوس إلى جانبها. جلست فاطمة بصمت، وبدأت تتناول فطورها ببطء، تنظر من حولها محاولة أن تبدو طبيعية، رغم أن شيئًا ما في الجو لم يكن طبيعيًا.

العجيب أن الجميع بدوا وكأنهم قد استيقظوا من نوم عميق في توقيت واحد، بنفس الهدوء، بنفس الحركات المتناسقة، كأنهم خاضعين لإيقاع خفي... غير مرئي.

حينما انتهى الفطور، بدأت الطالبات بالتوجه إلى صفوفهنّ بانتظامٍ غريب، دون ضجيج أو لهو. كل واحدة تسير وكأنها تعرف طريقها منذ سنوات، وخلفها فاطمة بخطى مترددة، لا تزال تتأملُ الممرات الباردة وجدران المدرسة العتيقة.

دخلت الصف وجلست قرب النافذة، وها هي سحر بجانبها تشير لها أن المعلمة ستدخل الآن. لم تمضِ لحظات حتى انفتح الباب ببطء، ودخلت امرأة طويلة القامة، عيناها شاحبتان، وشعرها مرفوع بإحكام. لا أحد تحدث. لا أحد قال صباح الخير.

وضعت المعلمة دفترها على الطاولة، ثم أخرجت من عباءتها كتابًا صغيرًا ذو جلد قاتم، يبدو كأنه لم يُفتح منذ قرون. قلبت صفحاته ببطء، ثم قالت بصوت خافت، أشبه بالهمس:

"أوشا... ناكثا... بيل مرهات... زاليمون... أوراخ نيريم..."

لم تكن تلك كلمات عربية، ولا من أي لغة تعرفها فاطمة، لكنها نُطقت بإيقاع يشبه تلاوة القرآن. شيء في نغمة الصوت جعل قلب فاطمة يخفق. التفتت إلى سحر، لكنها كانت تنظر للأمام بثبات، كأنها حفظت هذه التلاوة جيدًا.

ثم رفعت المعلمة نظرها نحو الطالبات، وقالت بجفاف:
"سوف نبدأ الدرس. أريد من كل واحدة أن تفتح دفترها، وتكتب ما تسمعه دون سؤال."

لكن فاطمة... لم تكتب. كانت تحدّق بالكتاب في يد المعلمة، وقد أقسمت أنها للحظة، رأت شيئًا يتحرك بين صفحاته.

انتهت الحصة بهدوء، وكأن الدرس كان عادياً جداً، لكن في قلب فاطمة كان هناك شيء لا تستطيع تفسيره. نظرت حولها إلى زميلاتها في الصف، لم تكن هناك أي علامة على القلق أو الدهشة. الجميع كان يتعامل مع الأمر كما لو كان جزءاً من حياتهم اليومية.

جمعت فاطمة شجاعتها، واقتربت من إحدى الطالبات التي تجلس بجانبها، وهي فتاة بهدوء وابتسامة عذبة على وجهها. همست فاطمة وهي تحاول أن تخفي قلقها:
"أخبريني... ما الذي كانت المعلمة تقرأه؟"

أجابت الفتاة بهدوء وكأن السؤال مألوف جداً:
"هذا قرآن... نحن هنا جميعاً مسلمون، فلا عجب أن نسمع القرآن يُتلى في كل درس."

تلك الكلمات مثلت صدمة صغيرة لفاطمة، إذ لم تكن تتوقع أن يكون الوضع بهذا الوضوح. كانت تعيش وسط أناس يدينون بدين مختلف تماماً عن دينها، وفكرة أن تكون الوحيدة التي تحمل ديانة مختلفة في مكان كهذا جعلتها تشعر بغربة كبيرة.

حاولت أن تسأل المزيد، لكنها توقفت، تذكرت أن الجميع يتعامل مع هذا الواقع كأنه أمر عادي، وأنها وحدها من تشعر بثقل الاختلاف داخل قلبها. لم تستطع أن تفهم لماذا.

جلست فاطمة في مكانها، وعينيها تتجولان في الصف، بينما صوت المعلمة يتلاشى في الخلفية، لكنها لم تستطع تجاهل الشعور البارد الذي بدأ يتسلل إلى داخلها، شعور غريب لا تشبه أي شعور شعرت به من قبل.

دخلت المعلمة صف المدرسة بحركات هادئة ورصينة، ترتدي عباءة داكنة وشاحاً يغطي شعرها، بينما تحمل قطعة الطباشير البيضاء بين أصابعها بثقة. وقفت أمام السبورة الخضراء الكبيرة، وألقت نظرة خاطفة على الطالبات، ثم بدأت تشرح الدرس بصوت واضح، متزن، ينم عن خبرة طويلة في التدريس.

بدأت بكتابة جمل وكلمات معقدة بحروف كبيرة على السبورة، تاركة أثر الطباشير الأبيض يسطع وسط الخلفية الخضراء. كان الصمت يعم الصف، فكل طالبة تتابع بتركيز شديد. فاطمة جلست في المقعد المعتاد، عيناها تتابعان الكلمات المكتوبة، وأذناها تلتقطان كل نبرة في صوت المعلمة، ولكن رغم ذلك، لم يكن هناك أي شعور بالخوف أو الشك يتسلل إلى قلبها.

مر الوقت بهدوء، وتناولت المعلمة موضوع الدرس كأي صف دراسي عادي. كانت تشرح القواعد والمواد بعناية، تأخذ وقتها في شرح كل نقطة، دون استعجال. وبينما كانت فاطمة تحاول استيعاب المعلومات، لاحظت أن الطالبات من حولها لم يظهرن أي علامة توتر، ولم تبتعد أي منهن عن دورها، ولم تبدُ أي تصرفات غريبة.

كانت فاطمة تراقب الوجوه حولها، ترى في أعين الطالبات هدوءًا غريبًا، كأن هذا الأمر طبيعي جدًا بالنسبة لهن. لم تلتفت إلى أي شيء خارج الصف، ولم تلاحظ أي ضوضاء غير معتادة، ولم تشعر بأي برودة مفاجئة في الجو، بالرغم من أن الطقس خارج المبنى كان باردًا.

حين انتهى الدرس، قامت المعلمة بمسح السبورة بقطعة القماش البيضاء، ثم ابتسمت وقالت بصوت هادئ: "الدرس اليوم كان هاماً، أتمنى أن تكونوا قد استوعبتم كل ما شرحته". كان الصوت مليئاً بثقة مطلقة، ولم يترك مجالًا للشك أو التساؤل.

خرجت الطالبات من الصف واحدة تلو الأخرى بهدوء، ولم تترك أي أثر لصخب أو ضجيج. فاطمة شعرت وكأنها في مدرسة عادية، لا تختلف عن أي مدرسة مرت بها من قبل، ولكن شيئًا ما كان يختبئ في زوايا هذا المكان، شيء لم تستطع حتى اللحظة إدراكه أو تصديقه.

جلسات الدراسة الأولى مرّت كأنها تمرير صفحة عادية في كتاب حياتها، لكن تحت سطح الهدوء الظاهر، كانت الأرض تهتز بصمت، وما سيأتي لاحقًا سيكون أبعد ما يكون عن ذلك الهدوء والطمأنينة التي عايشتها الآن.

فجأة، وبينما كانت فاطمة جالسة تستمع للدرس، بدأت تخطر في أنفها رائحة غريبة، لم تشم مثلها من قبل، رائحة ثقيلة ومقززة، تشبه رائحة الجثث المتحللة، لكنها ليست واضحة تماماً، كانت تختلط في الهواء حولها كأنها تأتي من بعيد لكنها تقترب شيئاً فشيئاً.

حاولت فاطمة أن تتجاهل تلك الرائحة، لكنها ازدادت قوة حتى شعرت بأن الهواء نفسه يثقل في صدرها. نظرت إلى زميلاتها حولها، لكنهن كأنهن لم يشعرن بها، مستغرقات في الدرس كأن الرائحة ليست موجودة أبداً.

تملّكها شعور غريب، بين الخوف والارتباك، لكن عقلها رفض تصديق ما كان يحدث. حاولت أن تركز على كلام المعلمة، لكن تلك الرائحة لم تتركها، كانت كختم مظلم على بداية يومها، شيء لا تستطيع تفسيره، ولا تعرف مصدره.

في ذلك الوقت، كانت الرائحة تزداد سوءًا، وكأنها تحذر فاطمة من أمر لم تستطع أن تفهمه بعد، شيء مظلم ينتظرها في هذا المكان.

من شدة غثيانها بسبب تلك الرائحة الكريهة، تسارعت أنفاس فاطمة وضاق صدرها حتى كادت تختنق. حاولت جاهدة كتم ما يعتلج في حلقها من رغبة في التقيؤ، لكن الغثيان اشتد فجأة، مما اضطرها لأن تمسك بمرفقها بإحكام وتميل جسدها للأمام، محاولة أن تخفي ارتجاف شفتيها المتقطع.

في تلك اللحظة، بدت كأنها عالمة وسط صحراء لا تعرف مهربًا، فقد كان الوجه شاحبًا كالثلج، والعيون ممتلئة بالدموع التي لم تستطع صدها. كل نفس تستنشقه كان كالسهم المغروس في صدرها، والهواء من حولها بدا ثقيلاً كأن حجب الموت تغلفه.

كل زميلاتها في الصف، رغم تعبيرات وجوههن العادية، لم تبدو تبالي بشعورها المروع، وكأنها باتت وحيدة تمامًا وسط بحر من اللامبالاة. لم تستطع تفسير تلك الرائحة التي تسربت عبر جدران الصف، رائحة فظيعة تذكّرها بجثث متفسخة أو ظل مسموم، شيء أبعد من حدود الوعي.

وبينما هي تتلوى وتحاول السيطرة على نفسها، لم تكن تعرف أن هذه الرائحة المروعة ليست مجرد رائحة عابرة، بل كانت بشارة غامضة لما ينتظرها في هذا المكان الغريب، مدرسة الزيركان التي تخفي تحت جدرانها أسرارًا مظلمة لا تكاد تظهر للنور.

وبينما تتصبب عرقًا، وتشعر بقلبها ينبض بقوة، بدت الرائحة وكأنها تزداد قوة، وكأنها تتغلغل في كل زاوية من جسدها وروحها، تحذرها بصمت من المصير الذي يتهددها، ذلك المصير الذي لن يكون كما توقعت.

نهضت فاطمة من مقعدها بسرعة متعثرة، تسارع قلبها وسقطت حقيبتها على الأرض. لم تعد تطيق البقاء في ذلك المكان الذي امتلأ بالرائحة الكريهة التي تتسلل إلى أنفاسها، فخطت خطوات مترددة لكنها حازمة، تتجه نحو أي ممر أو زاوية بعيدة، تبحث عن ملجأ تستطيع فيه التقيؤ وتخفيف ذلك الغثيان المميت الذي يعتصرها.

كان كل شيء من حولها كأنه يدور بسرعة، وجوه الطالبات والمعلمات أصبحت ضبابية غير واضحة، وأصوات الهمسات والدرس أصبحت بعيدة كأنها من عالم آخر. لم يكن يهمها سوى أن تجد مكانًا تريح فيه جسدها المتعب وروحها المتضررة.

وفيما كانت تمشي بسرعة متزيدة، حاولت أن تتنفس بعمق، لكن الرائحة لم تفارقها، وكأنها تلاحقها إلى كل خطوة تخطوها. شعرت أن كل خلية في جسدها تئن من هذا العذاب، وأنها وحيدة تمامًا في مواجهة شيء لا يمكنها فهمه أو مقاومته.

بعد خطوات متعثرة وسريعة، وصلت فاطمة إلى ركن مهجور في أحد الممرات الضيقة داخل المدرسة، حيث لم يكن هناك أحد. استندت إلى الحائط البارد، وأغلقت عينيها للحظة قبل أن تنحني فجأة وتتقيأ بقوة.

كانت الغثيان يخرج منها كأنه حمل ثقيل يُزاح عنها، لكنها رغم ذلك شعرت بالضعف والارتباك. حاولت أن تأخذ نفسًا عميقًا، محاولة أن تهدئ قلبها الذي كان يدق بعنف، لكن الرائحة الكريهة لا تزال تحاصر أنفاسها وتزيد من شعورها بالاختناق.

وقفت بعدها متكئة على الحائط، تنظر إلى الأرض أمامها بتردد، وعرفت أن هذا اليوم لن يكون كباقي الأيام التي مرت عليها، وأن شيئًا غريبًا وغير طبيعي قد بدأ يتسلل إلى حياتها دون سابق إنذار.

عندما عادت فاطمة إلى الصف، وجدت الحصة لا تزال مستمرة رغم مرور وقت طويل على مغادرتها. لم يلتفت إليها أحد، وكأن غيابها لم يُلحظ أصلاً. جلست على مقعدها بهدوء، محاولة استجماع تركيزها، لكن سرعان ما لاحظت شيئًا غير طبيعي. المعلمة كانت تعيد نفس الكلمات التي بدأت بها الحصة، بصوت واحد رتيب لا يتغير، وكأن الزمن قد توقف أو أن الحصّة تكررت بلا نهاية.

الطالبات الأخريات جالسات ساكنات، ولا تبدو أي منهن مشوشة أو منزعجة من التكرار الغريب، بل كأن الأمر مألوف لديهن، وهذا زاد من قلق فاطمة. كانت تشعر بثقل في صدرها، وضبابية تغلف تفكيرها. الهواء في الغرفة أصبح خانقًا، وكأن الجدران تقترب منها ببطء. نظرت حولها باحثة عن أي تفسير، لكن كل شيء بدا وكأنه توقف عن الحركة، وكأنها تعيش في حلقة زمنية مغلقة.

حاولت فاطمة أن تهمس بشيء أو أن ترفع يدها للسؤال، لكن صوتها بدا وكأنه ضباب، بالكاد خرج من حلقها. وجدت نفسها غير قادرة على التحرك بحرية، كما لو أن شيئًا غير مرئي يقيدها في مكانها. وهنا شعرت ببرودة غريبة تنتشر من أطراف أصابعها، وانتقلت سريعًا إلى جسدها كله، لكن لم تكن تلك برودة عادية، بل كانت تحمل معها إحساسًا بالخوف المميت والجمود.

نظرت مرة أخرى إلى المعلمة التي كانت تغوص في كلماتها، لكن عينيها بدت مفرغتين من الحياة، كأن روحًا أخرى تسكن جسدها، وهذا الأمر زاد من شعور فاطمة بالخوف والريبة. وجدت نفسها تتساءل في صمت: هل هي فعلاً في مدرسة؟ أم أنها في عالم مختلف، حيث كل شيء يظل ساكنًا في لحظة أبدية، لا وقت فيها ولا حركة؟

وبينما هي غارقة في أفكارها، بدأت تُسمع أصوات خافتة تخرج من الجدران، أصوات همسات غير مفهومة، تبدو كأنها نداءات أو تحذيرات. حاولت أن تستدير لترى مصدرها، لكن الرأس لم تستجب لها. شعرت بأن كل شيء حولها يتحول إلى ظل قاتم، وأن واقع المدرسة بدأ ينكشف أمام عينيها كوجه مخيف لا يُرى إلا في الكوابيس.

الوقت تلاشى، والحصة استمرت في تكرار كلماتها، والجو الثقيل خانق، وفاطمة محاصرة في ذلك المكان، وحدها في عالم من الظلال والصمت الذي يصرخ داخل صدرها...

لكنها حاولت تجاهل هذه الأفكار، وقالت لنفسها: "ربما أنا متعبة... أو متوترة لا أكثر." نظرت إلى الدفتر أمامها وراحت تكتب بعض الملاحظات، متظاهرة بالتركيز، رغم أن الكلمات على السبورة لم تكن واضحة، والمعاني لا تتماسك. ومع ذلك، تمسكت بعنادها: لن تُظهر خوفها، ولن تدع عقلها ينساق وراء هذا الشعور الغريب.

كانت تراقب عقارب الساعة وهي تتحرك ببطء، كأن كل دقيقة تمرّ أثقل من التي قبلها. وحتى صوت الطباشير على السبورة كان يبدو أكثر خشونة من المعتاد، وكأن المعلمة لا تكتب بل تحفر شيئًا ما. لكن فاطمة ظلت جالسة في مكانها، تنظر للأمام بعين ثابتة وتتنفس بهدوء، تتشبث بالعقل والمنطق.

وأخيرًا، توقفت المعلمة عن الكتابة، التفتت بهدوء إلى الطالبات وقالت بصوت مبحوح:
"هذا يكفي لليوم."

صمت خيم على الفصل للحظة، ثم بدأت الطالبات يجمعن دفاترهن. فاطمة أخذت نفسًا طويلًا، كأنها خرجت للتو من تحت الماء. لا أحد يبدو أنه شعر بما شعرت به. حتى الفتاة التي كانت بجانبها طوال الحصة كانت تبتسم كأن شيئًا لم يكن.

نهضت فاطمة بهدوء، تشعر بثقل غريب في قدميها، لكنها أجبرت نفسها على المشي. الحصة انتهت. لكنها عرفت في أعماقها أن ما رأته وسمعته لن يزول بسهولة من ذاكرتها.

خرجت فاطمة من الفصل متجهة نحو الممر الطويل، حيث كانت الطالبات يتوزعن هنا وهناك، بعضهن يتهامسن، وأخريات يتجولن بلا هدف واضح، وكأن لا أحد يشعر بالزمن كما تفعل هي. أخرجت زجاجة الماء من حقيبتها وشربت القليل، محاولة أن تهدئ اضطراب معدتها وأفكارها في آنٍ معًا.

سمعت صوت إحدى المعلمات في نهاية الرواق تنادي:
"الفصل القادم يبدأ بعد عشر دقائق، لا تتأخرن."

تنهدت فاطمة بخفوت وسارت نحو الدرج المؤدي للطابق الثاني، حيث قالت لها الطالبة سحر إن حصتها التالية هناك. كانت الخطوات على الدرج ثقيلة، والسكون الذي يخيّم على الأرجاء لا يشبه صخب المدارس المعتاد. كل شيء هنا يبدو منظمًا... أكثر من اللازم.

حين وصلت للفصل التالي، دخلت بهدوء وجلست في المقعد الأخير. لم تكن هناك طالبة واحدة تتحدث، الجميع جالسون، صامتون، ينظرون للأمام وكأنهم في طقوس مقدسة بانتظار شيء مجهول.

مرت دقائق، ثم دخلت معلمة طويلة القامة، بوجه جامد ونظرات باردة، أمسكت بقلم السبورة وبدأت الكتابة. لم ترحب، لم تبتسم، لم تذكر اسمها. فقط بدأت في تدوين معادلات رياضية معقدة.

حاولت فاطمة التركيز، لكنها كانت لا تزال تفكر في الحصة السابقة... وفي ذلك التكرار الغريب، والرائحة التي لا تفسير لها، والهدوء المشوب بالتوتر في أروقة المدرسة.

همست في سرّها: "ربما عليّ أن أصمد فقط حتى نهاية الأسبوع... ثم أطلب العودة."

لكن شيئًا ما في أعماقها كان يهمس بأنها لن تتمكن من المغادرة بسهولة.

شكرًا للتنبيه! إذًا نعيد المقطع مع تصحيح أن فاطمة تعرف فرح مسبقًا:

بعد انتهاء الحصة الأخيرة، دوّى صوت الجرس في أرجاء المدرسة، معلنًا موعد الغداء. شعرت فاطمة بتعب ثقيل وهي تنهض من مقعدها، وكأن الصباح مرّ بأحداث غير معتادة، رغم أنها لم تستوعبها بعد. جمعت دفاترها وسارت خلف الطالبات في الممر المؤدي إلى قاعة الطعام.

عندما دخلت القاعة، فوجئت بعدد الطالبات الكبير. الطاولات مصفوفة بدقة، وكل مجموعة تجلس سويًا كما لو أن لكل طالبة مكانًا معلومًا سلفًا. لم يكن هناك صخب، بل همسات متفرقة، وضحكات خافتة لا تعرف إن كانت نابعة من مزاح بريء أم من شيء آخر.

جلست فاطمة على طرف طاولة كانت تجلس فيها سحر، التي بادرتها بنظرة مطمئنة.
قالت سحر: "أخيرًا انتهى أول يوم، أليس كذلك؟"

أومأت فاطمة بخفة وابتسمت، قبل أن تجلس فرح إلى جانبها مباشرة، وهي تقول بمرح مألوف:
"أوه، فاطمة! الحصة الأخيرة كادت تقتلني من الملل!"

ضحكت فاطمة بهدوء، وسرعان ما قُدّم إليهن الطعام: طبق من الحساء ورغيف خبز، لا أكثر. تناولت فاطمة الملعقة الأولى ببطء، لتفاجأ بأن الحساء بلا طعم تمامًا. نظرت حولها، جميع الطالبات يأكلن دون تذمر، كما لو أن الأمر طبيعي.

أغلقت فاطمة كتاب الرياضيات بلطف، ثم فتحت حقيبتها الصغيرة وأخرجت دفتر المذاكرة المغلف بورق ملون كانت قد زينته قبل قدومها إلى هذه المدرسة. وضعته على الطاولة، واستخرجت قلمها الأزرق المفضل، ثم أخذت نفسًا عميقًا وفتحته على الصفحة الفارغة.

جلست بهدوء، وضوء المصباح الخافت فوقها يرسم دائرة صفراء باهتة على الورقة. بدأت تكتب عنوانًا بخط أنيق: "ملخص دروس اليوم". كانت تلك عادتها منذ سنوات، كانت تشعر أن كتابة الملخصات تُنظّم أفكارها وتخفف من قلقها، وكأنها تُعيد ترتيب العالم الفوضوي حولها.

كتبت نقاط الدرس الأول: "المعلمة بدأت الدرس بآيات، لم أميزها... قالت الطالبات إنه قرآن." ثم توقفت قليلًا، وكأن قلمها تردد. لكنها قررت تجاهل هذا الخاطر، فكتبت ملخصًا بسيطًا للمحتوى دون التطرق لذلك.

تابعت تلخيص درس الرياضيات، ثم مادة التاريخ، وكلما كتبت أكثر، شعرت أن الغرفة أكثر دفئًا من الخارج، وكأن وجودها في هذه العزلة يحميها من شيء لا تستطيع تسميته بعد. كانت تكتب بتركيز، والسطور تمتد على الصفحة بخط دقيق مرتب، رغم أن روحها لم تكن تمامًا مطمئنة.

مر الوقت، وكانت لا تزال تكتب، تُراجع وتدوّن، كأنها تحاول أن تجعل الواقع يبدو أكثر منطقية على الورق. وكلما خطّت سطرًا، أراحها شعور بأن هذا العالم، حتى وإن بدا غريبًا، يمكن السيطرة عليه ولو قليلاً... عبر الكلمات.

رفعت فاطمة رأسها عن الدفتر ببطء، وقد تفاجأت بطرق الباب، وبتلك النبرة الرسمية التي خرجت من خلفه. سمعت صوتًا نسائيًا يقول:

"فاطمة، انزلي لتنظيف المدرسة مع الطالبات."

لكن ما أزعجها حقًا لم يكن الطلب، بل تلك الكلمات التي تبعت الجملة... كلمات بدت كأنها ليست عربية، ولا تشبه أي لغة سمعتها من قبل. نُطقت بسرعة وبنغمة رتيبة، كأنها تخرج من فم المعلمة بلا وعي، أو كأنها جزء من تعويذة غامضة. شعرت بقشعريرة خفيفة تمر على جلدها، لكنها حاولت أن تُقنع نفسها بأنها تتخيل. ربما كانت لغة كردية؟ أو لهجة لا تعرفها.

أجابت بصوت خافت: "حسنًا، سأكون في الأسفل بعد لحظات."

أغلقت دفترها بعناية، وضعت القلم داخل الغلاف، ثم نهضت. شعرت أن الهواء في الغرفة تغيّر قليلًا، أصبح أثقل، كأن أثر تلك الكلمات لا يزال عالقًا في الجدران. لكنها تجاهلت ذلك، وارتدت سترتها، ثم خرجت من الغرفة بخطوات مترددة.

في ممرات المدرسة، كانت الأضواء خافتة، والصمت يعم المكان بشكل غير مألوف. سمعت أصوات الطالبات من بعيد، وبدأت تتبعها لتصل إلى حيث التجمع. قلبها ينبض بخفة، لا من الخوف، بل من الغرابة التي بدأت تلتف حول كل شيء... كأن هذه المدرسة تخفي شيئًا، لكنها لا تعرفه بعد.

في اللحظة التي غادرت فيها فاطمة غرفتها، كانت إحدى المعلمات تصعد الدرج ببطء، خطواتها لا تُصدر صوتًا تقريبًا، كأنها تنزلق على الأرض لا تمشي. وقفت أمام غرفة فاطمة دون أن تطرق الباب، ثم فتحت الباب بهدوء ودخلت.

نظرت المعلمة حول الغرفة بصمت، ثم وقعت عيناها على المذكرة الموضوعة على الطاولة. تقدّمت نحوها، حملتها بين يديها، وراحت تتفحص الصفحات التي كتبتها فاطمة بخط يدها.

وفي لحظة غريبة، أمالت المعلمة رأسها إلى اليمين بشكل غير طبيعي، زاوية مائلة أكثر مما تسمح به رقبة بشرية. ثم، وبلا إنذار، تحولت عيناها إلى السواد الكامل... لا بياض فيها، لا بؤبؤ، لا شيء سوى ظلام كثيف، كأنها فتحت بوابتين إلى فراغ بلا قاع.

وبدأ شيء يشق طريقه من عينيها... كان سائلًا لزجًا كثيفًا، لونه أسود داكن يميل إلى الحمرة، يتقطر ببطء على صفحات المذكرة. لم يكن دمًا عاديًا، بل كأنه دم مسموم، ثقيل، ينبض في سقوطه، وتصدر منه رائحة كريهة، تشبه الحديد المحترق ممتزجًا بالعفن.

وقفت المعلمة هناك، لا تتحرك سوى بعينيها اللتين تنزفان هذا السائل الغامض، شفتيها تتحركان بكلمات غير مسموعة، كأنها تهمس لنفسها، أو تتلو شيئًا لا يُفترض أن يُقال. أما المذكرة... فقد بدأ الحبر فيها يتشوه، والسطر الأخير الذي كتبته فاطمة صار وكأنه يُمحى ببطء، وتظهر تحته كلمات أخرى، لم تكتبها هي.

وبعد لحظات بدت كأنها دهور، توقفت عينا المعلمة عن النزف فجأة، واختفى السائل الأسود كما لو لم يكن، تبخر في الهواء، أو ابتلعته الصفحات.

أغمضت عينيها للحظة، وعندما فتحتهما مجددًا، عاد البياض، وعاد البؤبؤ إلى مكانه، وكأن شيئًا لم يكن. استقام رأسها ببطء إلى وضعه الطبيعي، ثم وضعت المذكرة على الطاولة بهدوء، كما وجدتها.

نظرت حول الغرفة مرة أخيرة، نظرة هادئة خالية من أي شعور، ثم استدارت وغادرت الغرفة بنفس الخطوات الصامتة. أغلقت الباب وراءها، ولم تترك وراءها سوى هواء ثقيل... كأن الغرفة كانت قد احتجزت أنفاسها طوال تلك اللحظات.

كل شيء عاد إلى طبيعته. لكن المذكرة... كانت الصفحة الأخيرة لا تزال مبللة، والحبر فيها قد تغيّر.

انضمت فاطمة إلى باقي الفتيات في الممر الطويل المؤدي إلى الطابق الأرضي. كانت تحمل قطعة قماش ودلو ماء فاتر، تتقدم خطواتها ببطء وهي تحاول التماشي مع ما حولها. الأرضية القديمة المصقولة تعكس ضوءًا خافتًا يتسلل من النوافذ الضيقة، ورائحة خفيفة من الرطوبة تعبق في الجو.

الفتيات كنّ يعملن بصمت شبه تام، كل واحدة منهن تمسح أو تكنس أو ترتب دون أن تنبس بكلمة. بدا كأن الجميع يعرف ما يجب فعله، وكأن هذا الطقس يتكرر كل يوم، وكل واحدة تؤديه بإيقاع غريب من الهدوء المريب.

انحنت فاطمة ومسحت أسفل أحد المقاعد الخشبية، ثم رفعت رأسها تنظر حولها. كل شيء بدا طبيعيًا، لكن هناك شيء ثقيل في الأجواء لا يمكن وصفه.

سمعت همسات بعيدة، لم تستطع تحديد مصدرها. رفعت نظرها، فإذا بزميلتها سحر تمسح زجاج إحدى النوافذ القريبة. ابتسمت فاطمة وهمّت بالكلام، لكن سحر لم تردّ، وكأنها لم تسمع، أو لم تكن هناك أصلًا.

في زاوية القاعة، لاحظت فاطمة أن إحدى الطالبات كانت تمسح نفس البقعة منذ مدة، بحركات بطيئة متكررة، وجهها لا يظهر بوضوح بسبب الشعر المنسدل. شعرت فاطمة بالقلق، لكنها صرفت نظرها سريعًا، تحاول التركيز على ما بيدها.

كان المكان هادئًا لدرجة أن صوت القماش وهو يحتك بالأرضية أصبح كضجيج.

انحنت فاطمة مجددًا، تمسح رقعة من الأرضية القديمة قرب أحد الأبواب الخشبية الكبيرة. وبينما كانت تتحرك ببطء، رأت ظل فتاة خلفها يمر في انعكاس الزجاج الباهت. لم تكن هناك أصوات أقدام، لا حفيف، لا تنفس، لا أي حركة تُنبئ بوجود أحد.

شعرت بقشعريرة تسري في عمودها الفقري. أنزلت رأسها أكثر، تظاهرت بعدم الانتباه، وواصلت المسح بهدوء. قلبها بدأ ينبض بسرعة لا تتناسب مع الهدوء الظاهري حولها.

ثم، دفعتها رغبة عميقة في التأكد. رفعت رأسها بحذر، لكنها لم تجد أحدًا خلفها.

لكن الصدمة الحقيقية كانت عندما التفتت للأمام.

الفتاة... التي كانت قبل لحظات خلفها... أصبحت الآن أمامها تمامًا.

واقفة بصمت تام، تحدّق بها بعينين لا ترمش، وجه شاحب، لا يحمل تعبيرًا واضحًا، وكأن الزمن تجمد للحظة بينهما.

فاطمة شهقت خافتة وتراجعت قليلًا، لم تصدر الفتاة أي صوت، ولم تتحرك.

لا خطوات، لا تنفس.

وكأنها كانت دائمًا هناك.

ابتلعت فاطمة ريقها بتوتر وهي تحاول أن تتماسك، ثم قالت بصوت خافت مكسو بابتسامة متوترة:

"عجبًا... أخفتِني."

ظلت الفتاة صامتة، تحدّق بها بعينين ساكنتين لا يظهر فيهما أي أثر للتفاعل أو الفهم. وكأن كلمات فاطمة لم تصل إليها، أو ربما لم تكن موجهة إلى كائن بشري أصلاً.

أدارت الفتاة رأسها قليلًا إلى اليمين بحركة بطيئة وغريبة، وكأن رقبتها غير معتادة على الحركة. لم تنبس ببنت شفة، لكن فاطمة لاحظت شيئًا... عين الفتاة بدت داكنة أكثر مما ينبغي، خالية من البريق... بل وكأنها مرآة سوداء تعكس فراغًا.

ثم، دون مقدمات، استدارت الفتاة وغادرت بخطوات هادئة، خفيفة لدرجة أن الأرض لم تصدر عنها أي صرير. فاطمة بقيت واقفة، تمسح بيدها العرق من جبينها، تهمس لنفسها:

"لابد أنني متعبة فقط... مجرد توتر، لا أكثر."

لكن قلبها لم يهدأ.

بعد أن انتهت فاطمة من التنظيف، وهي ما تزال تشعر ببرودة الأرض تحت قدميها رغم أن الجو لم يكن باردًا، بدأت أصوات الطالبات تعود تدريجيًا، كأن المدرسة تنبض بالحياة من جديد بعد لحظة خمود.

كان أول ما سمعته ضحكة خفيفة من إحدى الزوايا البعيدة، تبعها همسات متداخلة غير مفهومة. بدأت الأبواب تُفتح، وأصوات خطوات ناعمة تملأ الممرات. فتيات يتحادثن، يتهامسن، بعضهن يضحكن، وبعضهن يسرن بصمت، وكأن ما من شيء غريب حصل للتو.

استقامت فاطمة من وقفتها وأزاحت خصلة من شعرها العالق بجبهتها، تنظر من حولها. كل شيء يبدو طبيعيًا فجأة. لا أحد يذكر ما حدث، ولا أحد يتصرف وكأن شيئًا غريبًا وقع.

سارت بهدوء نحو غرفتها، تتسلل داخل جموع الطالبات دون أن تلفت الانتباه، متسائلة في نفسها:

"هل أنا فقط من لاحظت تلك الفتاة؟ أم أن الجميع اعتادوا مثل هذه الأمور هنا؟"

لكنها لم تجد إجابة... فقط الصمت المألوف للمدرسة، وضحكات غير مريحة تأتي من كل اتجاه.

وبينما كانت فاطمة تقترب من غرفتها، وسط ضوضاء الطالبات وهمساتهن المألوفة، خفّت الأصوات من حولها فجأة، كأن أحدهم لفّ الممرات ببطانية سميكة من الصمت.

ثم، من مكان لا يمكن تحديده—لا من اليمين ولا من اليسار، لا من الأعلى ولا من الأسفل—انطلق صوت خافت، لكنه واضح كأنه يُهمس في أذنها مباشرة:

"فاااطمة..."

توقف قلبها لحظة، وجمدت في مكانها، عيناها تتفحصان الفراغ أمامها. كان الصوت أقرب إلى الصدى، لا يحمل نبرة بشرية، بل نغمة ممدودة، رخوة، مشحونة بشيء لا يمكن وصفه.

"فاطمة..." تكرر ثانية، لكن هذه المرة بدا وكأن الجدران نفسها هي من لفظت الاسم.

التفتت سريعًا خلفها، لم يكن هناك أحد. الطالبات من حولها يتحدثن ويضحكن، وكأنهن لم يسمعن شيئًا. حتى الهواء من حولها بدا ساكنًا بصورة مريبة.

شعرت فجأة بقشعريرة تسري من عنقها إلى أطراف أصابعها، فابتلعت ريقها بصعوبة وأسرعت الخطى نحو غرفتها، تحاول أن تُقنع نفسها أن ما سمعته مجرد وهم.

لكن الاسم تردد مرة ثالثة، هذه المرة أقرب... وكأن أحدًا خلفها يهمس به تمامًا في أذنها.

ظنت فاطمة أن الصوت الذي سمعته ما هو إلا نتاج خيالها وتعب يوم طويل مرّ بها دون توقف، فجلست للحظة تستجمع أنفاسها وتحاول أن تسيطر على خوفها الذي بدأ يتسلل إلى أعماقها. كانت الأصوات تهمس في أذنيها كما لو أن هناك شيئًا ما يراقبها عن كثب، لكن كل ما حولها كان هادئًا، لا حركة، لا ضوء غير خافت المصابيح في الممرات. حاولت أن تُقنع نفسها بأنها مجرد أوهام، نتاج إرهاق جسدي وذهني، وأغلقت عينيها لثوانٍ، ثم فتحتها مجددًا، لكن الصوت عاد يرن في أذنيها، يردد اسمها بصوت خافت ولكن ثابت، وكأنه يدعوها للعودة أو للتحقق من شيء ما.

شعرت برعشة تسري في جسدها، لكن فاطمة كانت تعرف أنها لا يمكن أن تسمح للخوف أن يُسيطر عليها. أمسكت بحقيبتها بإحكام، وخطت خطواتها ببطء وبحرص، عازمة على الوصول لغرفتها دون أن تنظر خلفها مرة أخرى. كان الليل يُخيم على المدرسة، والظلال تلعب بأشكال غريبة على الجدران، لكن فاطمة تذكرت كلماتها المتكررة: "عليكِ الصبر، أنتِ وحدكِ القادرة على النجاة".

وصلت أخيرًا إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها بهدوء، ثم استندت إلى الباب وأغمضت عينيها لبرهة، تحاول أن تخرج من رأسها أصوات ذلك النداء الغريب. لكنها لم تستطع أن تنكر شعورها بأن شيئًا ما غير طبيعي يختبئ في زوايا تلك المدرسة، وأن هذا الصوت لم يكن مجرد وهم.

في تمام الساعة الثامنة مساءً، طرق الباب بهدوء ثم انفتح على مصراعيه لتظهر طالبة صغيرة تحمل ابتسامة دافئة وقالت بصوت ناعم: "فاطمة، هل يمكنكِ النزول لتناول العشاء؟ الجميع ينتظرونك."

لم ترد فاطمة فورًا، لكن صوت الطالبة كان يحمل ودًا غير معتاد في هذا المكان الغريب، فأجابت مترددة: "حسنًا، سأحضر حالاً."

كانت خطواتها خفيفة ومترددة وهي تنزل من غرفتها، مرّت بجدران المدرسة الباردة التي تعكس ضوء المصابيح الخافت، حتى وصلت إلى قاعة الطعام حيث تجمع عدد من الطالبات والمعلمات، يتبادلون الحديث والضحك بطريقة تبدو عادية رغم ما شعرت به في ساعات النهار.

جلست فاطمة بهدوء على الطاولة، لكنها لم تستطع تجاهل تلك النظرات التي أحيانا كانت تلاحقها في الزوايا، أو الحركات الغريبة التي لا يفهمها عقلها. مع ذلك، حاولت أن تبقي على رباطة جأشها، تبتلع لقمة بعد أخرى، لكنها شعرت بأن هذا العشاء لم يكن كباقي العشاءات التي عرفتها في حياتها.

صعدت فاطمة الدرج بخطوات متثاقلة، وكل خطوة تصدر صدىً خافتًا يتردد في أروقة المدرسة المهجورة في ذلك الوقت. كانت أجواء المدرسة غريبة، أكثر مما تخيلت، خصوصًا مع هذا الصمت المطبق الذي خيّم فجأة على المكان، فالقاعة التي شهدت ضحكات وأحاديث الطالبات قبل دقائق خلت الآن خاوية تمامًا، لا روح فيها، لا همس، لا أي حركة تُذكر.

توقفت عند منتصف السلم، نظرت خلفها باتجاه قاعة الطعام مرة أخرى، عينها تلمع بالخوف والارتباك. حاولت أن تبحث بعينيها عن أي ظل أو حركة، أي علامة تُخبرها عن سبب هذا الاختفاء المفاجئ، لكنها لم ترَ سوى الظلال الطويلة التي تشكّلت من أضواء المصابيح الخافتة.

بدأت تسري في جسدها قشعريرة باردة، ليس فقط من فرط الوحدة، بل من شعور غامض وكأن شيئًا خفيًا يراقبها عن قرب. كانت تحاول إقناع نفسها بأن الأمر مجرد خدعة عقلية ناجمة عن التعب والإرهاق، لكنها لم تستطع أن تهرب من ذلك الإحساس الثقيل بأن هذه المدرسة ليست كما تبدو، وأن شيئًا مظلمًا يختبئ خلف جدرانها الصامتة.

مع كل خطوة تصعدها نحو غرفتها، ازدادت تلك المشاعر الغريبة، وأصبح الصمت أكثر حدة، كأنه يضغط عليها من كل جانب. لم تكن تجرؤ على النظر خلفها كثيرًا، لكنها لم تستطع منع عينيها من الالتفات مرة أخرى، محاولة أن ترى إن كانت هناك حركة أو ظلال تتسلل من زوايا الممرات الطويلة.

وصلت أخيرًا إلى باب غرفتها، أخرجت مفتاحها مرتجفًا وفتحت الباب، ودخلت بسرعة وهي تغلق الباب خلفها بإحكام، كأنها تحاول طرد كل ما شعرت به من خوف وبرودة. وقفت لحظة تتنفس بعمق، محاولة استعادة رباطة جأشها، لكنها لم تستطع التخلص من شعور أنها ليست وحدها، وأن الليل في هذه المدرسة يحمل أسرارًا وألغازًا ليست من عالم البشر.

أطفأت فاطمة الأنوار بهدوء، تاركة الغرفة تغرق في ظلمة كثيفة لا يقطعها سوى خيط خافت من الضوء القادم من أسفل الباب. استلقت على السرير ببطء، ودفنت وجهها في الوسادة، تحاول عبثًا أن تجد الراحة أو شيئًا من الأمان. لكن عقلها لم يمنحها الفرصة.

كانت الأفكار تدور وتدور، كأنها محاصرة في دوامة لا تنتهي. أين اختفت الطالبات؟ لماذا شعرت بأن الجميع قد تلاشى فجأة؟ ولماذا لم يبدُ على أيّ منهن القلق أو الخوف من كل ما يحدث في هذه المدرسة؟

راحت تتذكر كلمات المعلمة التي قالتها في الحصة الأولى... كانت كلمات غريبة، ليست من القرآن، ومع ذلك ادعت إحدى الطالبات أنها "آيات"، بل وكأن الأمر طبيعي تمامًا في هذه المدرسة. فاطمة لم تكن تعرف الكثير عن الطقوس الغريبة أو المدارس الدينية، لكنها كانت متأكدة أن ما سمعته لا يشبه أي شيء سمعته من قبل.

ثم عادت إلى صورة الفتاة التي ظهرت فجأة أمامها وقت التنظيف، دون أن تسمع خطواتها، وكأنها خرجت من العدم. ثم صدى الصوت الذي ناداها باسمها. هل كانت تتخيل؟ هل من الممكن أن التعب والحلم والقلق نسجوا لها هذه الصور؟ لكن الإحساس كان حقيقيًا جدًا... مرعبًا جدًا.

رفعت عينيها نحو السقف، وكان الظلام كثيفًا كأنها تنظر إلى العدم. كل شيء في هذه المدرسة يشعرها وكأنها تائهة في مكان لا يخضع لقوانين العالم الذي اعتادت عليه. رغم إرهاق جسدها، كان عقلها يقظًا، يحفر في الأحداث، يرتبها، يعيد ترتيبها، ويحاول أن يجد تفسيرًا لكل هذا.

مرّ الوقت ببطء شديد، والثواني بدت كأنها ساعات. لم تستطع النوم، وكلما أغمضت عينيها، شعرت بشيء يقترب، كأن الهواء نفسه يثقل ويضغط على صدرها.

ثم نظرت فاطمة إلى الباب، وكان ينبعث منه ضوء باهت كأن أحدًا يشعل شمعة خلفه. بدأ الباب يتحرك، ينفتح ببطء شديد، يصدر صريرًا خافتًا يكاد لا يُسمع، ومع كل سنتمتر يتحركه، كانت أنفاس فاطمة تتقطع.

وفي الفراغ المظلم خلف الباب، ظهر ظل... ظل فتاة.

لم تكن تشبه أي فتاة رأتها من قبل. كان جسدها مغطى بالسواد بالكامل، وكأن الظلام نفسه تجسد فيها. عيناها بيضاء تمامًا، بلون العظام، لا رمش، لا طرف، لا حياة. وكانت تفتح فمها بابتسامة باردة، طويلة، ومشوهة، كأن عضلات وجهها لا تفهم كيف تُغلقه.

تجمدت فاطمة مكانها، جسدها لا يستجيب، وصوتها مبحوح داخليًا فقط، تصرخ في رأسها لكن لا صوت يخرج. لم تكن تعرف إن كان ما تراه حقيقيًا أم أنها ما زالت عالقة في حلم... لكن صوت خطوات خفيفة بدأت تقترب ببطء من عتبة الغرفة جعلها تدرك أن هذا الكابوس بدأ الآن.

في اليوم التالي، استيقظت فاطمة على صوت خافت منبهٍ يأتي من الممر، كأنه رنين جرس قديم، يعلن بداية يوم آخر في مدرسة زيركان. كانت الشمس بالكاد تتسلل من شق صغير في النافذة المغلقة، ورائحة الغبار العالق تملأ الغرفة. جلست على سريرها ببطء، وعيناها مثقلتان من قلة النوم، فقد أمضت ليلتها تتقلب في خوف وصمت، تنتظر أن يعود ذلك الظل أو يظهر صوت من تحت الباب. لكن لا شيء حدث.

رفعت البطانية عن نفسها بتردد، وكأنها تتأكد أن لا أحد اختبأ فوقها أو بجانبها. مدت قدميها نحو الأرض الباردة، والتفتت ناحية الباب—ما زال مغلقًا، وما من أثر لأي ضوء أو ظل خلفه.

غسلت وجهها بماء بارد من الإبريق الذي أعطته لها المعلمة عند وصولها، ثم ارتدت زيّ المدرسة وخرجت من غرفتها. الممر كان فارغًا كالمعتاد، لكنه بدا أكثر اتساعًا مما كان عليه بالأمس، كأن الجدران قد تراجعت أو تلاشت. الأصوات الخافتة تتردد من الطابق السفلي: همسات الطالبات، صوت خطوات متكررة، وموسيقى خفيفة لا تعلم من أين تصدر، كأن أحدًا يدندن لحنًا من زمن قديم.

نزلت فاطمة الدرج بهدوء، وكل خطوة من خطواتها كانت تصدر صدى خفيفًا غير طبيعي. وعندما وصلت إلى الطابق الثاني، مرت من أمام إحدى الغرف التي كانت أبوابها مغلقة بالأمس، لكنها الآن مفتوحة قليلاً. لمحت من خلالها شيئًا يتحرك — كأنها يد تُسحب بسرعة داخل الظلام.

توقفت، نظرت مليًا، لكن الباب لم يتحرك بعدها.

"لا تفتحي أي باب مغلق"، همست لنفسها، وتابعت النزول.

عند وصولها إلى قاعة الطعام، كانت معظم الطالبات يجلسن بهدوء، يتناولن إفطارهن دون حديث، بملامح متشابهة... خامدة. جلست في نفس المكان الذي جلست فيه بالأمس، وبينما كانت تضع قطعة خبز في طبقها، سمعت الصوت الهادئ من جانبها مجددًا:

"صباح الخير، فاطمة."

التفتت، كانت سحر. ملامحها هادئة، تبتسم بلا شغف.

فاطمة بادلتها الابتسامة بخفة:
"صباح النور."

لكن داخل عقلها، لم تكن تلك الفتاة مجرد زميلة جديدة... كانت الآن ترتبط بكل شيء غريب يحدث.
وبينما كانت تغمس الخبز في طبق صغير أمامها، رفعت عينيها للحظة، ورأت المعلمات يقفن خلف طاولة بعيدة... يتهامسن بلغات لا تفهمها... وعيونهن — عيونهن بدت كأنها لا ترمش.

لقد بدأ اليوم الثاني... وكان أكثر ظلمة من الأول.

مع انتهاء اليوم، كانت خطوات فاطمة متثاقلة وهي تصعد الدرج المؤدي إلى الطابق الثالث حيث غرفتها. كان الممر طويلاً وهادئًا أكثر من المعتاد، كأن المدرسة كلها توقفت عن التنفس. الضوء الخافت المنبعث من المصابيح القديمة في السقف كان يبعثر ظلالًا متكسرة على الجدران، تُشبه أشباحًا راقصة تتمايل بصمت.

وصلت أمام باب غرفتها، توقفت. يدها المرتجفة امتدت نحو المقبض، لكنها لم تمسكه بعد. كانت تتنفس ببطء، تحاول أن تهدّئ رعبها الداخلي. فمنذ الليلة الماضية، ومنذ أن رأت الظل وعينيه البيضاوين يحدقان بها من خلف الباب، لم تعد تشعر بالأمان في هذا المكان.

"ماذا لو كان شيء ينتظرني في الداخل؟"
سؤال دار في رأسها كهمسة ملعونة. حدّقت طويلاً في الباب، كأنها تتوقع أن ينفتح من تلقاء نفسه، أو أن تسمع شيئًا يتحرك خلفه.

أخيرًا، جمعت شجاعتها، أدارت المقبض ببطء، ودفعت الباب.

الغرفة بدت كما تركتها... ساكنة، باردة، لا أثر فيها لشيء غريب. لكنها لم تدخل فورًا. وقفت على العتبة، تتأمل السرير، المذكرة على الطاولة، الكرسي الخشبي في الزاوية. كل شيء كان في مكانه... لكن الإحساس لم يكن كذلك.

خطت خطوة إلى الداخل، ثم أغلقت الباب خلفها بهدوء.

خلعت حذاءها، وجلست على طرف السرير، عيناها ما تزالان تتنقلان في أنحاء الغرفة بتوتر، تترقب أي حركة غير طبيعية، أي صوت، أي ظل. لكن لم يحدث شيء.

ومع أن الغرفة لم تكن مختلفة عن البارحة، إلا أن الخوف كان أكبر... كأن الأرواح التي تعبث في هذا المكان باتت تعرف اسمها الآن.

عند منتصف الليل، كانت فاطمة نائمة على جانبها، ملفوفة بالبطانية حتى رأسها، أنفاسها هادئة لكن مقلقة، كأن روحها تنتظر شيئًا. كانت الغرفة ساكنة، لا يُسمع فيها سوى صوت الريح الخفيفة التي تهز النوافذ العتيقة.

وفجأة، بدأت ترى حلمًا... حلمًا بدا وكأنه أكثر من مجرد خيال نائم.

في الحلم، كانت تقف وحدها في ممر مظلم، يتردد صداه من الجدران الرطبة المغطاة بطبقة خفيفة من السواد. أمامها سلالم طويلة تصعد إلى الأعلى... إلى الطابق الخامس. ذلك الطابق المحظور الذي لا يُسمح لأحد بالاقتراب منه.

ورغم أنها لا تملك الجرأة عادة للصعود، كانت قدماها في الحلم تتحركان دون إرادة منها. خطوة بعد أخرى، تصعد ببطء، وجدران السلم تضيق أكثر مع كل درجة. الأضواء فوقها كانت خافتة، ترمش كأنها على وشك الانطفاء، وكان الجو يزداد برودة كلما اقتربت.

وصلت إلى الباب الحديدي في نهاية السلم، كان مغطى بطلاسم قديمة محفورة كأنها جُدرت بأظافر، أو حُفرت بأسنان. الباب فُتح ببطء، بصوت مزعج كأن الزمن نفسه يئن من تحركه.

وراء الباب... كانت الأرضية مغطاة ببقع داكنة، والسقف منخفض، والهواء مشبع برائحة فاسدة... خليط بين عفن ودم قديم. الجدران تهمس بكلمات غير مفهومة، همسًا لا يُسمع بالأذن بل يُشعر في عظام الصدر.

ثم ظهرت أمامها فتاة بملامح مشوهة، ترتدي زي المدرسة لكنه ملطخ بالوحل والدم. لم تتحرك، لكنها كانت تحدق في فاطمة مباشرة، وعيناها تتوهج بلون أبيض غريب. رفعت يدها ببطء وأشارت نحو فاطمة، ثم تمتمت:
"عودتك كانت متأخرة... لكن الباب الآن فُتح."

وقبل أن تفهم فاطمة معنى الكلام، بدأت الأرضية تهتز، والأنوار تنطفئ واحدة تلو الأخرى، وسحبٌ سوداء بدأت تنزل من السقف، تتمدد نحوها...

في اللحظة التي اقترب فيها الظل منها، استيقظت فاطمة من نومها بفزع، تتنفس بصعوبة، يداها تتعرقان، وقلبها يخفق كأن أحدًا طارده داخل صدرها.

نظرت حولها في الغرفة... لا شيء تغير، كل شيء في مكانه. لكن الشعور لم يغادرها... شعور أن روحها كانت فعلاً هناك، في الطابق الخامس... وأن أحدهم عرف وجودها.

شعرت فاطمة بجفاف في حلقها وهي تجلس على سريرها، تتنفس ببطء وتحاول طرد آثار الحلم الغريب الذي رأته قبل قليل. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، والظلام يملأ أرجاء الغرفة إلا من خيط خافت من ضوء القمر يتسلل من نافذتها الصغيرة.

ثم، فجأة...

طَق... طَق... طَق...

تجمّدت فاطمة في مكانها. الصوت لم يكن قريبًا... كان فوقها مباشرة. رفعت رأسها نحو السقف ببطء، وكأنها تخشى أن ترى شيئًا.

كانت تقيم في الطابق الثالث، تعلم ذلك جيدًا. لكن ما فوقها كان الطابق الرابع، وهو طابق مأهول عادي، حسب ما قيل لها. أما الطابق الخامس... فقد أخبرتها إحدى الطالبات أنه "مغلق منذ سنين"، ولم يُسمح لأحد بالصعود إليه.

لكن الصوت الذي تسمعه الآن لم يكن صوت مشي عادي. كانت خطوات ثقيلة، غير بشرية.
طَق... طَق...
ثم وقفة.
ثم صوت شيء يُسحب... كأن أحدهم يجر قدمًا مصابة، أو شيئًا ضخمًا لا يستطيع حمله.

شعرت بقشعريرة تزحف من قدميها حتى عنقها، ثم بدأت تسمع همسات خفيفة، تخرج من فوقها، وكأن شخصًا يتحدث بلغة غير مفهومة. همسات، ثم صمت... ثم ضربة فجائية على السقف جعلت الغبار يتساقط على الأرض.

وضعت يدها على فمها، تكتم أنفاسها.

هل من الممكن أن يكون هناك شخص في الطابق الخامس الآن؟ شخص حيّ؟ أم... شيء آخر؟

حاولت إقناع نفسها أنه ربما إحدى الطالبات في الطابق الرابع تمشي ليلًا، لكن هناك شيء ما في تلك الخطوات، في ذلك الهمس، لا يبدو بشريًا.

همست فاطمة لنفسها بصوت مرتجف:
"لا شيء، لا شيء... مجرد أوهام... أنا فقط مرهقة."

لكن قلبها كان يعلم... ما كانت تسمعه فوقها، لم يكن بشريًا.
ولم يكن نائمًا.

ثم، وسط السكون المتوتر، اخترق الهواء صوت غريب...
بكاء.
لكن لم يكن بكاءً عاديًا. كان بكاءً صدئًا، كأن أحدهم يبكي بصوت محشور في حنجرة جافة منذ مئة عام. الصوت يأتي من فوق غرفتها، من الطابق الرابع... أو ربما من السقف مباشرة.

لم يكن بكاء أنثى عاديًا، لم يكن حزينًا فقط، بل كان يحمل في نبرته شيئًا مكسورًا، شيئًا قديمًا، موحشًا، كأن صاحبه نسي كيف يُبكى بشكل بشري. كان الصوت يرتفع تدريجيًا، من شهقة خافتة إلى نحيب مرعب، حتى شعرت فاطمة أن جدران غرفتها بدأت تضيق.

جلست على السرير، تضم ساقيها لصدرها، تحدق بالسقف.
ثم... توقف البكاء فجأة.
هدوء مفاجئ. صمت ثقيل.
ثم، نقرة واحدة... وكأن شيئًا ذو أظافر معدنية قد خمش السقف.

فاطمة جمدت. عيناها مفتوحتان على اتساعهما.
لكن قبل أن تستوعب ما يحدث، جاء صوت ضحكة ناعمة ومخنوقة، أنثوية... لكن غير بشرية، كأنها تأتي من فم لا يحتوي سوى ظلال وأسنان.

همست فاطمة، بالكاد بصوت:
"يا رب... احميني..."

كل شيء عاد ساكنًا.

لكنها كانت تعرف في قرارة نفسها... أن هناك من فوقها شيء يراقب.
وأن البكاء لم يكن إلا نداءً... ليعرف إن كانت قد استيقظت.

في تلك اللحظة، لم تعد فاطمة قادرة على تجاهل الأمر. كانت أنفاسها ضحلة ويدها ترتجف، لكنها دفعت البطانية جانبًا ببطء، كأنها تخلع درعًا وهميًا. حدقت في الباب لعدة ثوانٍ، متوقعة أن ترى ظلالًا أو شيئًا يتسلل من الشقوق... لكن لا شيء.

نهضت من السرير وهي تدوس بأطراف أصابعها على الأرض الباردة. لبست حذاءها المنزلي ووقفت عند الباب. مدت يدها نحو المقبض وترددت... "مجرد صوت، مجرد توهم... أنا فقط أحتاج أن أرى أنه لا شيء."

فتحت الباب بهدوء.

الظلام في الممر لم يكن مطبقًا، بل كان هناك ضوء خافت يتسرب من أحد المصابيح في الزاوية، لكنه بدا ضوءًا ميتًا، بلا حرارة.

خرجت، وأقفلت الباب خلفها ببطء. نظرت يمينًا ويسارًا، كل الأبواب مغلقة، ولا أثر لأي شخص. لكن البكاء عاد... من الأعلى، واضحًا أكثر، وكأن شخصًا على وشك الانهيار.

استجمعت شجاعتها، وبدأت تصعد السلم، درجة بعد درجة، قلبها يدق بعنف.

وصلت إلى الطابق الرابع، وقفت عنده قليلًا، علّ الصوت يكون من هنا... لكنه لم يكن كذلك.

ما زال فوق.

الطابق الخامس... المحظور.
الطابق الذي قيل لها يوم وصلت إنه غير مستخدم. الطابق الذي لم ترَ فيه أحدًا يدخل أو يخرج.

رفعت قدمها بخوف، ووضعتها على الدرجة المؤدية للطابق الأخير. وكلما اقتربت...
كلما بدأ الصوت يخفت.
ثم عند الدرجة الأخيرة... صمت تام.

وقفت هناك، تتردد. مدت يدها نحو الباب المغلق للطابق الخامس.
كانت على وشك لمسه، فقط لكي تطمئن نفسها أنه مغلق، أنه لا شيء هناك.

لكن قبل أن تلمس المقبض...

انفتح الباب من تلقاء نفسه.
صوت الصرير القديم ملأ الدرج، ونسمة باردة خرجت من العتمة.

تجمدت فاطمة.
تراجعت خطوة للخلف.

لكن لم يكن هناك أحد.
لا شيء سوى ممر طويل مظلم... وصوت خافت، بعيد جدًا، يأتي من نهاية الممر:
ضحكة صغيرة.

تسمّرت فاطمة في مكانها، تتفحص الظلام أمامها، ذلك الممر الخانق الذي لا يُرى له نهاية. الصوت الذي سمعته لم يكن بكاءً هذه المرة... بل ضحكة، خافتة، كأنها صدًى لطفلة تلهو، أو ربما لشيء يقلد صوت طفلة.

أرادت التراجع، جسدها يأمرها بذلك، لكن قدميها ظلتا متسمّرتين في مكانهما. الهواء كان ساكنًا حد الرعب، والممر لا يبدو كأنه جزء من المدرسة نفسها... جدرانه مظلمة، وأرضيته لا تعكس ضوء المصباح، كأنها امتصّت كل ما فيها من نور.

ثم لمحَت شيئًا.

عند نهاية الممر، كان هناك جسد صغير جالسٌ على الأرض، ظهره نحوها، شعره مبلل أو مغطى بسائل داكن، وكتفاه يتحركان بهدوء كأنه ينتحب. لكنه لم يكن الصوت الذي سمعته منذ قليل.
هذا الكائن لا يصدر منه صوت الآن.

اقتربت فاطمة خطوة.

ثم خطوة أخرى.

الهواء أصبح أثقل، وكأن كل نفس تأخذه يمر عبر طبقة من الرماد.

ثم...

استدار الكائن فجأة.

لم يكن طفلاً.

كان وجهه بلا ملامح، سوى فتحتين سوداوين مكان العينين، وفم مشقوق من الأذن للأذن، كأن أحدهم مزق الجلد بسكين صدئ.

فتح فمه دون صوت... لكن في رأس فاطمة، ترددت صرخة. ليست كأنها تسمعها... بل كأنها تعيشها.

تراجعت فاطمة، ركضت، تقهقرت للأسفل بلا وعي، خطواتها تتخبط على السلالم، حتى وصلت للطابق الثالث واندفعت لغرفتها، أغلقت الباب، وأخذت تدفع المكتب والخزانة أمامه بيدين مرتجفتين.

سقطت على الأرض، تتنفس بعنف، وجسدها كله يتصبب عرقًا.

حدّقت للباب، تتوقع في أي لحظة أن يُفتح مجددًا، أن ترى الظل المخيف... لكن لم يحدث شيء.

مرت دقائق طويلة، ثم ساعات، وهي جالسة بجانب الحائط، عيناها لا تفارقان الباب، حتى بدأ الضوء الرمادي يتسلل من خلف الستائر، معلنًا قدوم الفجر.

لم تنم.

ولم تنسَ الضحكة... ولا ذلك الوجه.

لكن حين أشرقت الشمس، بدأت تتساءل:
هل كان كل هذا حلمًا آخر؟
هل كانت نائمة؟
أم أن الطابق الخامس ليس خاليًا كما يزعمون؟

ثم أصبحت الساعة السابعة صباحًا، ومع أول خيوط الضوء التي تسللت عبر الستائر، شعرت فاطمة بوخز خفيف في رأسها، كأنها لم تنم طوال الليل، رغم أن عينيها أُغلقتا للحظات بين الذعر والإنهاك. جلست ببطء على السرير، كانت البطانية لا تزال ملفوفة حولها وكأنها درع، ووجهها شاحب، كأن الليلة السابقة سرقت منها شيئًا لا يمكن استعادته.

سمعت أصوات الطالبات في الخارج، خطواتهن الرتيبة في الممر، أحاديث خافتة، وضحكات تخلو من الحياة. بدا كل شيء طبيعيًا... أكثر من اللازم.

نظرت إلى الباب بتردد، تذكرت ما حدث – أو ما ظنت أنه حدث – الليلة الماضية: الظل، الصوت، ذلك الكائن ذو الوجه الممزق... لكنها لم تكن تملك دليلًا واحدًا على أن كل ذلك كان حقيقيًا.

قامت وارتدت ملابسها ببطء، ثم غسلت وجهها، تتأمل انعكاسها في المرآة الصغيرة التي أخفتها في حقيبتها – تلك المرآة الوحيدة التي استطاعت إدخالها دون أن يلاحظ أحد. لكن وجهها بدا مختلفًا قليلًا... وكأن عينيها تحملان ظلًا آخر، ظل خوف لا يزول.

سمعت من بعيد صوت المعلمة ينادي:
"الدروس تبدأ الآن، لا نريد متأخرات."

أخذت نفسًا عميقًا، فتحت الباب، وتقدّمت في الممر بين الطالبات. المدرسة بدت كما هي: قديمة، صامتة رغم الضجيج، ورائحة خافتة كأنها قادمة من عالم آخر.

لكنها شعرت بشيء واحد فقط:

أن كل شيء، من هذه اللحظة، سيتغير.

ثم قررت فاطمة، بعد كل ما حدث، أن تخبر سحر، الفتاة التي جلست بجانبها منذ اليوم الأول، والتي قدمت نفسها دون أي مقدمات. رغم شعورها بعدم الاطمئنان الكامل نحوها، كانت سحر الوحيدة التي شعرت تجاهها ببعض الأمان، وربما كانت أول صديقة لها في ذلك المكان الغريب.

في فترة الاستراحة، جلستا على أحد المقاعد الحجرية القديمة تحت ظل شجرة ذابلة في ساحة المدرسة. كان الهواء بارداً قليلاً، والهدوء يلف المكان مع همسات الطالبات المتفرقات هنا وهناك. اقتربت فاطمة من سحر بنظرة حذرة، وهمست:
"سحر، أريد أن أخبرك بشيء، لكني لا أدري إن كنت سأُصدَّق."

رفعت سحر رأسها ونظرت إليها بعينين ثابتتين، وقالت بصوت هادئ:
"تكلمي، لا تخافي."

تنفست فاطمة بعمق، ثم قالت:
"لقد حدث أمر غريب في الليلة الماضية، حين كنت نائمة، فتحت الباب قليلاً، ورأيت ظل فتاة، لم أتمكن من رؤية ملامحها، لكنها كانت مخيفة... عيناها بيضاء بالكامل، وابتسامتها كانت غريبة، مرعبة. بعدها سمعت صوت بكاء يأتي من الطابق العلوي، وأنا في الطابق الثالث، والطابق الخامس ممنوع ولا يُفتح."

لم تبدِ سحر أي انفعال، بل استمعت لها بهدوء، ثم أجابت بصوت هادئ ولكن متحفظ:
"ربما كان خيالاً أو تعباً من التعب والإرهاق، الأماكن الجديدة تجعل الواحد يحلم أشياء غريبة."

أصرت فاطمة:
"لا، لم يكن حلماً، شعرت به كأنه حقيقة. وحتى عندما عدت إلى الصف بعد أن خرجت لأتقيأ، لم يلحظ أحد غيابي، كأن الزمن توقف عند ذلك."

نظرت سحر إليها بحذر، ثم قالت بنبرة منخفضة وأصوات تكاد تكون همساً:
"لو كنت مكانك، لما أخبرت أحداً عن هذا الأمر. بعض الأشياء إن عُرف سرها، لا يجلب إلا اللعنة."

ثم أمالت رأسها قليلاً وابتسمت ابتسامة باردة لا تصل إلى عينيها، وأضافت:
"ولا تظني أن كل من تظنينهم أصدقاء هم حقاً كذلك."

ثم وقفت وسارت مبتعدة بخطوات هادئة لا تُحدث صوتاً، كأنها تذوب في الهواء.

جلست فاطمة مكانها، وقلبها يخفق بعنف، والشعور بالخوف والريبة يتملكه. كانت تدري أن في كلام سحر شيئاً أكبر من مجرد تحذير عادي... شيئاً غامضاً، وخطيراً.

ثم، بينما كانت سحر تمشي مبتعدة، توقفت فجأة وسألتها إحدى الفتيات اللواتي كنّ يقفن بالقرب منها، بلغة غريبة غير مفهومة، أجراس كلماتها تتردد في أذن فاطمة كهمسات غامضة:
"ماذا قالت تلك البشرية بحق السماء؟"

نظرت سحر إلى الفتاة بنظرة باردة، ثم أجابت بصوت هادئ ولكن يحمل في طياته تهديداً خفياً:
"هي تجرؤ على الكلام، لكنها لا تدري ما الذي تقترب منه."

التفتت الفتاة وأومأت برأسها، بينما وقفتا معاً في صمت وكأنهن تتآمران على سر مظلم لا يعرفه أحد غيرهن.

كانت تلك اللحظة تحمل في طياتها ظلالاً من الغموض والرعب، ووسطها كانت فاطمة التي لم تستطع أن تفهم سوى أن خطراً كبيراً يحيط بها، وأن الكلمات التي سمعتها كانت بداية لعالم لم تكن تعرفه من قبل.

خارج أسوار المدرسة، توقفت سيارة سوداء أنيقة، لامعة رغم الغبار الذي يغطي الطريق الجبلي الضيق المؤدي إلى مدرسة "زيركان الداخلية للبنات".

فُتح باب السيارة الخلفي، ونزل منها شاب في التاسعة عشرة من عمره، كان طويل القامة، عريض الكتفين، ويرتدي نظارات شمسية عاكسة رغم أن الشمس بدأت بالميلان نحو الغروب. ارتدى سترة جلدية داكنة، وخطا بثقة واضحة تكاد تلامس الغرور. كان يحمل حقيبة صغيرة، ويبدو أن وجهه لم يكن يحمل أي اهتمام بما يحيط به.

رفع نظره نحو البوابة العالية للمدرسة، وحدّق في النقوش القديمة التي تزين أعمدتها، ثم ابتسم ابتسامة هازئة وقال لنفسه بصوت منخفض:
"مجرد مدرسة؟ لا شيء يبدو مميزًا..."

لكن، ما إن نزع نظاراته حتى شعر بشيء غريب؛ وكأن الهواء من حوله تغير فجأة، وأحس برجفة خفيفة في أطرافه، لم يعرف لها سببًا.

عند البوابة، كانت المديرة بانتظاره. امرأة طويلة ترتدي عباءة سوداء، يغطي وجهها وشاح قاتم لا يظهر منه سوى عينيها المتفحّصتين الباردتين. وقفت بصمت، تنتظره دون أن تتحرك خطوة واحدة.

اقترب منها، فرفعت رأسها وقالت بصوت ثابت دون ترحيب:
"أنت نوح، صحيح؟"

أومأ دون أن يبتسم:
"نعم. قالوا إنني سأعمل هنا... حارساً ليليًا."

قالت بنبرة لا مبالاة، كأنما تلقي تعليمات لا تهتم بها:
"الحراسة هنا لا تحتاج إلى شجاعة، بل إلى صمت."

ثم استدارت، وتقدمت نحو المدرسة دون أن تلتفت.

تردد نوح للحظة، ثم تبعها دون أن يقول شيئًا، غير مدرك أن خطواته هذه كانت بداية لانحداره في متاهة من الظلال، حيث لا شيء مما يراه سيكون كما يبدو.

دخل نوح من بوابة المدرسة العتيقة خلف المديرة، وبينما كان يعبر الساحة الحجرية الواسعة، لم يستطع إلا أن يشعر بأن الأرض تحت قدميه ليست كما ينبغي... كأنها تنبض ببطء، نبضًا لا يُسمع، بل يُحَس في العظم.

كانت الجدران تحيط به من كل جانب، عالية، باهتة اللون، تنبعث منها رطوبة خفية، ورائحة خفيفة كأنها مزيج من الكتب القديمة والتراب الرطب. مرّ إلى جانبه سرب من الطالبات، يتجهن إلى مبنى آخر، خطواتهن منتظمة، رؤوسهن منخفضة، ولم تلتفت أي واحدة منهن نحوه.

كان ذلك ما لفت انتباهه لأول مرة.

همس لنفسه:
"ولا نظرة؟ لا همسة؟ غريب..."

واصل السير خلف المديرة، التي فتحت له بابًا خشبيًا داخليًا، وقادته عبر ممر طويل مضاء بمصابيح شاحبة، حتى وصلا إلى مكتب صغير يطل على الساحة. فتحت الباب ودخلت، ثم أشارت إلى كرسي بلاستيكي بجانب طاولة بسيطة.

قالت دون أن تنظر إليه:
"هنا سيكون مكانك. لا تخرج من هذا المكتب بعد التاسعة مساءً إلا إذا طُلب منك. الأبواب تُغلق قبل الغروب، ولا أحد يُسمح له بالدخول أو الخروج بعد ذلك."

رفع حاجبه ساخرًا:
"هذا المكان فيه قوانين أكثر من السجن."

لم ترد. وقفت بثبات، ثم قالت فجأة، بنبرة باردة:

"أي تصرف خاطئ، أو أي فضول زائد... لن يُسامَح."

ثم غادرت، تاركة الباب نصف مفتوح.

نوح ظل واقفًا مكانه للحظة، يراقب الممر الفارغ، ثم جلس ببطء، وأخرج علبة دخان من جيبه. لكن ما إن همّ بإشعال سيجارة حتى شعر بشيء غريب... كأن هناك عينًا ما تراقبه من مكان قريب.

نظر حوله. لا أحد.

خرج إلى الممر بهدوء، وألقى نظرة على الساحة.

كانت خالية.

لكن في الطابق الثاني، خلف أحد النوافذ، لمح فتاة تقف دون حراك، تنظر إليه بثبات. ملامحها غامضة، وظلال غرفتها تحجب تفاصيل وجهها، لكن كان هناك شيء ما في عينيها... شيء غير مريح.

عاد إلى المكتب ببطء، أطفأ ولاعته، وقال في نفسه:

"يبدو أن هذه المدرسة تحب الصمت فعلاً... لكني لا أظن أن كل من فيها بشر."

في الجانب الآخر، بعيدًا عن أنظار فاطمة، كانت سحر واقفة قرب نهاية ممر طويل في الطابق الثاني، حيث لا تمرّ الطالبات عادة. الجدران هناك مغطاة بلوحات قديمة مغبرة، والأرضية تصدر صريرًا خافتًا تحت الأقدام، كأنها تئن من ثقل الأسرار التي تحملها.

كانت تقف أمام إحدى المعلمات — "المعلمة صفية" — وهي امرأة ذات وجه جامد كتمثال، ترتدي ثوبًا داكنًا طويلًا بلا أي زينة، وعيونها ضيقة حادة كأنها تبحث عن شيء لا يُرى.

سحر همست بصوت خافت:

"فاطمة... بدأت تشك. سألتني اليوم عن ما تقرأينه، وعن أصوات سمعتها ليلًا. هي... لا تفهم بعد، لكنها تشعر."

المعلمة صفية لم تتكلم في البداية، بل أمالت رأسها قليلاً، وعيناها تحدقان في سحر دون رمشة واحدة، ثم قالت بلغة غريبة، فيها خلل بسيط كأنها ليست بشرية:

"الوافدة... تُراقب. زمن الكشف لم يحن بعد. لا تتركيها تنطق بما لا يجب أن يُقال."

سحر أومأت بهدوء، لكن وجهها بدا متوترًا للحظة، ثم تمتمت:

"هي مختلفة... ليست مثل الباقيات. وهناك شيء آخر... أنا لا أستطيع أن أدخل حلمها."

جفلت المعلمة فجأة، وكأن كلمات سحر نكأت جرحًا خفيًا. تقدّمت منها خطوة واحدة، وحدقت بها وقالت بنبرة منخفضة ومخيفة:

"أنتِ لا تملكين الإذن. هذا الحجاب ليس لنا أن نخترقه بعد."

ثم أضافت بصوت أشبه بالنفَس:

"إن تجرأتِ مرة أخرى... سيُكسر شيء فيكِ."

انخفضت عينا سحر نحو الأرض، وابتلعت ريقها بصعوبة.

قالت صفية أخيرًا:

"راقبيها. بصمت. فإن تمادت... سنعلّمها كيف تصمت."

ثم استدارت، واختفت في الممر، كأن الجدران ابتلعتها.

سحر بقيت واقفة لثوانٍ، تنظر إلى مكان اختفائها، ثم رفعت عينيها ببطء وهمست:

"فاطمة... ما الذي جلبك إلى هنا؟"

في أثناء العشاء، كانت القاعة تملؤها الهمهمات الخافتة، وصوت الملاعق وهي تطرق الأطباق المعدنية كأنها ترانيم مكررة لا تنتهي. كانت الطالبات يأكلن بصمت معتاد، دون ضحك أو حديث جانبي، كأن الأكل طقس يجب أن يُؤدى.

فجأة، دخلت المعلمة "خديجة" ـــ أستاذة علم الأرض ـــ بخطى حادة، وجهها خالٍ من التعبير كعادتها، وشعرها ملفوف بإحكام تحت وشاح رمادي يميل إلى اللون الحجري. توقفت وسط القاعة، ونظرت إليهن جميعًا بنظرة فاحصة باردة، ثم رفعت بصوتها دون أن تصرخ:

"الفصل الثالث... عن طبقات الأرض. تقرأونه الليلة. غدًا صباحًا، سيكون هناك اختبار. لا أعذار."

ثم أدارت وجهها وغادرت، كما دخلت، دون أن تنتظر ردًا أو تأكيدًا.

في تلك اللحظة، كانت فاطمة تجلس بهدوء في طرف الطاولة الطويلة، يداها في حجرها، ولم تلمس طعامها تقريبًا. شعرت بثقل في صدرها. لم يكن الأمر في الدرس ذاته، بل لأنها لا تملك كتاب علم الأرض أصلًا. لم يُعطوها أي كتب يوم وصولها، وكلما سألت، كانت الإجابة غامضة أو التبرير سخيفًا: "سننظم لك لاحقًا"، "الكتب نادرة، تحملي قليلًا"، أو حتى تجاهل تام.

نظرت حولها، جميع الطالبات هززن رؤوسهن طاعة، وبعضهن أخرجن دفاتر صغيرة وبدأن يدونّ شيئًا. أما فاطمة، فبقيت صامتة، تشعر بأنها محاصرة بين قطيع يعرف دوره جيدًا، بينما هي ما تزال تجهل قواعد هذا المكان.

همست في نفسها:
"كيف سأذاكر شيئًا لا أملكه؟ وهل سيسمحون لي أصلًا؟"

لكن لا أحد التفت إليها، ولا حتى فرح التي جلست بقربها. المعلمة غادرت، والعشاء استمر، وكأن شيئًا لم يحدث.

كل شيء في هذه المدرسة يُقال مرة واحدة فقط. وإن لم تكن مستعدًا... فاللوم ليس على من نطق.

ثم خطرت في بال فاطمة فكرة وهي تتقلب على سريرها في غرفتها المعتمة، يضيئها ضوء خافت يتسلل من الشباك العالي:
"المكتبة..."

جلست فاطمة على سريرها، وأسندت ظهرها إلى الجدار البارد، وهي تفكر:

"ربما أستطيع أن أجد كتاب علم الأرض هناك... لن يلاحظ أحد، الجميع سيكون نائمًا، والمعلمات لن يتفقدن الغرف في هذا الوقت."

لم يكن في ذهنها وقتها سوى أنها لا تريد أن تُفاجأ في صباح الغد باختبار لا تعلم عنه شيئًا، في حين أن البقية قد حضّرن.
أرادت أن تكون مستعدة، أو على الأقل لا تكون الوحيدة التي تفشل في أول اختبار.

نهضت بهدوء، وارتدت حذاءها دون صوت. وضعت معطفها الرمادي الخفيف على كتفيها، وفتحت الباب ببطء شديد كي لا يصدر صريرًا.

الهواء في الممر كان ساكنًا... وباردًا أكثر مما ينبغي.

سارت بخطى ثابتة، تتحاشى الدرج المؤدي للطابق الثالث حيث غرف المعلمات. توقفت لحظة، وتلفّتت. لم يكن هناك أحد.

ثم أكملت طريقها، وفي عقلها صورة واحدة:

رفوف خشبية قديمة، وكتاب بعنوان "علم الأرض – الصف الحادي عشر".
فقط ذلك.

ثم وصلت فاطمة إلى باب المكتبة، كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلًا، والممرات خالية كأن المدرسة بأكملها قد دخلت في سبات.
مدت يدها بتردد إلى المقبض النحاسي البارد، فتحته ببطء، فصدر صرير خافت ارتجف له قلبها، لكنها تماسكت.

دفعت الباب ودخلت.

رائحة الكتب القديمة والجلد الجاف اجتاحت أنفها على الفور، والهواء داخل المكتبة بدا أكثر برودة من بقية المدرسة، كأنها دخلت سردابًا دفينًا تحت الأرض.

كانت تنوي التوجه مباشرة لقسم الجغرافيا، تبحث عن كتاب علم الأرض الذي طُلب منهن مراجعته، لكنها تجمدت مكانها فجأة.

كان هناك شاب يجلس على كرسي كلاسيكي خشبي، يقرأ في صمت، تحت ضوء خافت من مصباح يتدلّى فوق رأسه.

لم تره من قبل. لم يكن من الهيئة التعليمية ولا يشبه أي موظف قابلته. كان يرتدي سترة جلدية داكنة، وشعره الأسود القصير بدا مرتبًا بطريقة غير متوقعة. بجانبه على الطاولة، وُضعت نظارات شمسية عاكسة، لا يبدو أنه بحاجة لها الآن.

رفع رأسه نحوها، وبدا عليه الذهول لوهلة، ثم قال بصوت هادئ، فيه نبرة حذر:

"أ... لم أظن أن أحدًا سيدخل الآن."

تراجعت فاطمة خطوة إلى الوراء، وقلبها يخفق سريعًا. لم تكن تتوقع أن تجد أحدًا في هذا المكان، ولا أن يكون رجلاً.

قالت بتردد:

"أنا آسفة... ظننت المكتبة فارغة."

ابتسم الشاب بخفة، وأغلق الكتاب بين يديه ببطء، ثم وقف وقال:

"لا، لا بأس... واضح أنك لم تتوقعي وجودي. في الحقيقة، أنا نفسي لم أتوقع وجود أحد."

ظلت تنظر إليه دون أن تعرف ماذا تقول، فبادر هو:

"أنا نوح. جئت اليوم فقط... للعمل هنا."

فاطمة عقدت حاجبيها باستغراب:

"العمل؟ كـ... ماذا؟"

توقف لحظة قبل أن يرد، كأنه لم يكن متأكدًا من ما يُفترض أن يقوله:

"قالوا لي إنني سأكون هنا حارسًا ليليًا... لكن يبدو أن لا أحد يهتم بالتوضيح."

ثم نظرت فاطمة إلى الرفوف وقالت:

"أنا فقط... أبحث عن كتاب علم الأرض."

أشار نوح إلى الرف الأيسر وقال:

"رأيت بعض الكتب هناك قبل قليل... لكنها تبدو قديمة جدًا."

أومأت فاطمة وشكرته، ثم مشت بخطوات حذرة نحو الرفوف، بينما ظل هو واقفًا لثوانٍ يتأملها، وكأنما يشعر بشيء غير واضح، لا يشبه بقية ما رآه منذ دخوله المدرسة.

ثم، من دون أن يقول شيئًا آخر، حمل نظاراته، ووضع الكتاب على الطاولة، وغادر المكتبة بهدوء.

أما فاطمة، فوقفت تحدّق في الرفوف... وعقلها مشغول بتساؤلات لا تعرف إن كانت تملك الجرأة لطرحها الآن.

ثم وجدت فاطمة الكتاب.

كان موضوعًا في الزاوية السفلية من الرف الثالث، مغطًى بطبقة خفيفة من الغبار، كأن أحدًا لم يلمسه منذ سنوات. مدّت يدها وسحبته ببطء، فصدر صوت احتكاك خفيف بين الورق والرف الخشبي الجاف.

نظرت إلى الغلاف. كان مكتوبًا بخط كلاسيكي أنيق: "علم الأرض – الطبعة المدرسية الرسمية"، لكن الغلاف بدا غريبًا... وكأنه أقدم من عمر المدرسة نفسها، وصفحاته مصفرّة وبها بقع داكنة غير واضحة.

فتحت الصفحة الأولى، فسمعت شيئًا يشبه الهمس. رفعت رأسها بسرعة ونظرت حولها... المكتبة خالية، وصوت أنفاسها هو الوحيد الذي يمكن سماعه.

حدّقت في الصفحة مرة أخرى. لا شيء غير مقدمة عادية ومحتويات الدروس.

همست لنفسها، محاولة طمأنة ذاتها:

"أوهام... فقط تعب."

ثم أغلقت الكتاب بحذر، وضغطت عليه بيديها كما لو كانت تخشى أن يهرب، وخرجت من المكتبة بخطى سريعة دون أن تلتفت خلفها.

لكنها لم تلاحظ شيئًا صغيرًا جدًا...

في أسفل صفحة المقدمة، بين الكلمات، كان هناك سطر مكتوب بخط مختلف، بلون باهت يكاد لا يُرى:

"لا تقرئي الفصل الثالث وحدك..."

ثم، وبينما كانت تمشي بخطى متسارعة في الممر الطويل المؤدي لغرف النوم، عادت إلى فاطمة تلك المشاعر المزعجة — الخوف، الريبة، ذلك الإحساس الثقيل بأن شيئًا ما يراقبها من الظلال.

وفجأة، ومن خلفها، انطلق صوت هادئ لكنه مفاجئ:

"هل وجدتِ الكتاب؟"

توقفت فاطمة في مكانها كأن صاعقة مرت عبر عمودها الفقري، والتفتت ببطء لتجد ذلك الشاب — نوح — يقف على بعد عدة خطوات، نصفه غارق في الظل، ووجهه بالكاد مرئي تحت ضوء المصباح المعلق في الممر.

حدّقت فيه بعينين متسعتين، ثم رفعت يدها بسرعة ووضعت إصبعها على شفتيها، وهمست بلهجة مشحونة بالتوتر:

"شششش... لا تتكلم."

نظر نوح إليها بدهشة، لكنه سكت فورًا.

همست فاطمة مرة أخرى، وعيناها تتحركان نحو الجدران كأنها تخشى أن تسمعها الجدران نفسها:

"هناك شيء في هذا المكان... لا أحب أن أرفع صوتي فيه."

ساد صمت ثقيل بينهما للحظة. كل ما يمكن سماعه كان صوت خافت لصرير خشبي من بعيد، كأن أحد الأبواب يُغلق ببطء في نهاية ممر لا يُرى.

ثم أضافت فاطمة بصوت أقرب للهمس المرتجف:

"وجدت الكتاب... لكنه ليس عاديًا... شعرت بشيء غريب حين لمسته."

رفع نوح حاجبه، لكنه لم يجب. فقط نظر نحو الباب خلفها، كأن هناك من يتنصّت، ثم قال بنبرة خافتة:

"اذهبي... واكتبي ما عليكِ، لكن لا تفتحي صفحات كثيرة. بعض الكتب هنا... لا تكتب بالحبر فقط."

نظرت إليه فاطمة بدهشة، أرادت أن تسأله المزيد، لكنه اختفى في الظلّ كما ظهر — بهدوء، وبلا أثر.

وصلت فاطمة إلى غرفتها أخيرًا، وأغلقت الباب خلفها بهدوء، ثم أدارته بالمفتاح مرتين للتأكد. ظلت واقفة لثوانٍ، تنظر إلى الغرفة بصمت، وكأنها تتحقق من كونها وحدها بالفعل. تنهدت، وخلعت حذاءها ببطء، ثم جلست على حافة السرير، تفتح الكتاب الذي أخذته من المكتبة — كتاب علم الأرض.

كانت يدها ترتجف قليلاً وهي تقلب صفحاته، رغم محاولتها تجاهل شعورها الغريب اتجاهه. لم يكن الكتاب مريبًا من حيث الشكل، لكنه بدا أقدم من بقية الكتب التي رآتها من قبل، والصفحات كانت تميل إلى الاصفرار، كأنها عاصرت عشرات السنين من الاستخدام. لكن الكلمات... الكلمات كانت أوضح من أن تكون بهذا القِدم.

جلست إلى الطاولة الصغيرة بجانب النافذة، وأخرجت دفترها وقلماً، وبدأت تكتب، تحفظ، وتحاول التركيز رغم الإعياء. كلما مضت دقيقة، شعرت كأن الوقت يتباطأ أكثر. الكلمات أمامها صارت أثقل، كأنها تقاوم الدخول إلى ذاكرتها. مرت ساعة دون أن تدرك، ومع ذلك بالكاد أنجزت بضع صفحات.

أحست فجأة أن هناك نَفَسًا خلفها... كأن أحدهم يقرأ معها بصمت، لكن عندما استدارت لم تجد سوى ظل خزانتها على الجدار، يهتز خفيفًا مع نور المصباح الضعيف.

لكنها لم تتوقف.

شدّت الغطاء على كتفيها أكثر، واستمرت في الدراسة رغم الشعور المزعج الذي استقر في صدرها كحجر بارد. لم تكن تملك خيارًا، فغدًا الاختبار... وغدًا، في هذه المدرسة، قد يعني أشياء أكثر من مجرد علامات سيئة.

في الصباح التالي، استيقظت فاطمة على صوت الجرس الحديدي الذي يُقرع في الممرات إيذانًا ببداية اليوم الدراسي. فتحت عينيها ببطء، وأحست بثقل غير طبيعي في جسدها، كما لو أن نومها لم يكن راحة بل حربًا خفية. كان ضوء الصباح يتسلل من خلف الستائر الكثيفة، باهتًا، وكأن الشمس نفسها تهاب الاقتراب من هذه المدرسة.

جلست على السرير، وحاولت أن تسترجع تفاصيل الليلة الماضية: المكتبة، الكتاب، نوح، ذلك الشعور الثقيل في الغرفة... لكنها شعرت كأن جزءًا من ذاكرتها مكسور، مفقود أو ممحوّ.

نزلت من سريرها، وارتدت ملابسها بسرعة. الوقت يداهمها، وكان اختبار علم الأرض ينتظرها بعد قليل. وقفت أمام مرآة الخزانة الصغيرة، ثم تذكّرت فجأة: لا توجد مرآة! لقد اعتادت على ذلك، لكنها كل مرة تُفاجأ، وكأن عقلها يرفض تقبّل هذا الغياب.

خرجت من غرفتها، والممرات باردة على غير العادة. الطالبات يمشين في صمت شبه تام، وجوههن شاحبة، نظراتهن خالية من أي

حيوية. حاولت فاطمة أن تبتسم لإحداهن، لكن الطالبة لم تبادلها النظرة، بل مرّت وكأنها لم ترها.

عندما وصلت إلى الصف، دخلت وجلست في مقعدها المعتاد. دقائق قليلة، ودخلت معلمة علم الأرض، تحمل دفاتر سوداء وكتابًا مفتوحًا بين يديها. وقفت أمام الطاولة، وقالت بصوتها العميق البارد:

"امتحان اليوم سيُحدد من منكن تستحق البقاء."

تبادل بعض الطالبات النظرات، لكن بلا قلق أو دهشة... وكأنهن يعرفن.

أما فاطمة، فتجمدت في مكانها. لم تكن واثقة، هل كان تهديدًا حقيقيًا؟ أم مجرد طريقة صارمة للترهيب؟ لكن وجه المعلمة لم يحمل أي أثر للمزاح.

وزّعت الأوراق، وبدأ الامتحان. أمسكت فاطمة قلمها، ونظرت إلى الورقة أمامها. الأسئلة كانت غريبة... ليست عن الصخور أو الطبقات الجيولوجية، بل كلمات غير مفهومة، رسوم غامضة، ونقوش بدت مأخوذة من كتابٍ آخر، ليس من هذا العالم.

ورغم ذلك، بدأت تكتب. كأن يدها تعرف، بينما عقلها يصرخ في داخله:
"هذا ليس علم الأرض... هذا شيء آخر تمامًا."

عند الانتهاء، مدت فاطمة يدها وسلمت ورقة الامتحان للمعلمة التي استلمتها بنظرة باردة وكأنها تفحصها بعمق غير مرئي. وقفت المعلمة للحظة، ثم نظرت إلى الصف كله بصرامة، وقالت بصوت خافت لكنه حازم:

"سنرى من يفهم أكثر مما يبدو على السطح."

ثم أومأت للطالبات بالانصراف، فتدفقت الفتيات خارج الفصل بصمت ثقيل، تاركات فاطمة وحيدة تتساءل عن معنى تلك الكلمات والرموز التي كتبتها، والتي لم تفهمها هي نفسها.

خرجت من الصف بخطوات مترددة، وعادت إلى الممرات التي بدت أكثر ظلمة وبرودة من ذي قبل. كانت أفكارها تتقاطع بين الخوف والحيرة، لكنها كانت تعلم شيئًا واحدًا: هذه المدرسة ليست كما تبدو، وكل يوم يمرّ هنا، يقربها أكثر من أسرار مظلمة لا يمكنها الهروب منها.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن سلّمت فاطمة ورقتها الأخيرة، غادرت القاعة بخطى ثابتة وإن كانت متوترة. لم تلتفت خلفها، ولم تُبدِ اهتمامًا بالحصة القادمة. لم يكن في نيتها حضورها، إذ كانت غايتها مختلفة... كان عقلها مشغولًا بشخصٍ واحد:

نوح.

منذ تلك الليلة التي لمحته فيها داخل المكتبة، لم يغب عن بالها. لم يكن الأمر مجرد فضول، بل شعور داخلي بأن وجوده هنا ليس عاديًا، تمامًا كما أنها شعرت بأن ما حولها في هذه المدرسة ليس طبيعيًا.

سارت في الممر المؤدي إلى المكتبة، وكان السكون يخيم على المكان، والضوء خافتًا كأنّ أحدًا ما أراد إخفاء كل أثر للحياة داخله. دفعت الباب ببطء، فأصدر صريرًا خافتًا، ثم دخلت.

كان نوح جالسًا في الزاوية ذاتها، تحت ضوء مصباح طاولة صغير، يقرأ في كتاب قديم. لم يرفع رأسه فورًا، لكنه قال بصوت خافت دون أن يلتفت:

"كنت أعلم أنك ستعودين."

اقتربت منه بخطوات حذرة، وجلست على الكرسي المقابل. وضعت حقيبتها إلى جانبها، ثم قالت بهدوء:

"لا أحد لي هنا لأتحدث إليه."

رفع رأسه أخيرًا، ونظر إليها نظرة فاحصة، ثم قال:

"حتى الآن لا أعرف اسمك."

أجابته بتردد خفيف، وكأنها كانت تتردد في البوح بسرّ دفين:

"اسمي... فاطمة."

ابتسم ابتسامة جانبية، وقال:

"لا تبدين عادية."

شعرت باضطراب داخلي، لكنّها تجاوزته وسألته بنبرة خافتة:

"لماذا جئت إلى هنا؟ أعني... كيف وافقت أن تعمل حارسًا في مدرسة كهذه؟"

أغلق الكتاب ببطء، وأسند ظهره إلى المقعد، ثم قال:

"لأنه لم تكن لدي خيارات كثيرة. قالوا لي إن الراتب جيد والمكان هادئ. لكن لم يخبروني بأن البرد هنا يشبه برد المقابر... ولا أن الطالبات لا يتنفسن كما البشر."

صمتت فاطمة برهة، ثم همست:

"إذًا، لقد لاحظت..."

قال وهو يزيح الكتاب جانبًا:

"في البداية ظننتها أوهامًا... لكن كل شيء في هذه المدرسة خطأ. وكل وقت يمرّ، أزداد يقينًا أن هناك شيئًا أعمق... وأخطر."

نظرت فاطمة حولها، كأنها تخشى أن يتنصت أحد، ثم قالت:

"أريد أن أريك شيئًا حدث لي قبل بضعة ليالٍ... قد يساعدنا على فهم ما يحدث."

نظر إليها نظرة مختلفة، عميقة وجادة، وقال:

"حسنًا... لكن من الآن فصاعدًا، نحن نعمل معًا. لا أحد ينجو هنا بمفرده."

أومأت برأسها بصمت. ولأول مرة منذ أن وطأت قدماها هذه المدرسة، شعرت فاطمة أنها لم تعد وحيدة في مواجهة هذا الكابوس.

أومأت فاطمة بخفة، ثم نظرت نحو أحد الرفوف المظلمة، كما لو أن الذكريات تختبئ بين الكتب القديمة. كان صوت عقارب الساعة في المكتبة هو الصوت الوحيد الذي يسمع، حتى قطعه صوتها الهادئ المتوتر:

"قبل أيام... كنت نائمة، ثم استيقظت على ضوء غريب ينبعث من الطابق الخامس. عندما نظرت، رأيت ظل فتاة... ظل فقط، لكن ملامحها كانت واضحة... شعرها طويل، وجهها غير مرئي بالكامل، لكن عيناها... كانتا بيضاوين بالكامل، وفمها مفتوح بابتسامة... مرعبة."

لم يعلّق نوح، بل اكتفى بالتحديق فيها بثبات، ينتظر المزيد.

أكملت، هذه المرة بصوت أخفض:

"وضعت البطانية فوق رأسي، وانتظرت... لكن لم يحدث شيء. وعندما نظرت مجددًا... كانت الغرفة خالية تمامًا. لا صوت، لا حركة."

قال نوح بعد صمت قصير:

"وهل كان هذا أول ما يحدث معك؟"

هزّت رأسها نفيًا.

"منذ أن دخلت المدرسة وأنا أشعر أني... محاطة بأرواح لا أراها. الطالبات لا يتكلمن، لا يتفاعلن، وكأنهن دمى. حتى المعلمات... عيونهن تتغير. "

اتكأ نوح للأمام، وقال بنبرة هادئة لكن حازمة:

"هناك شيء مظلم هنا... وأنا أيضًا بدأت أرى أمورًا غريبة منذ أول ليلة. رأيت امرأة خلف النافذة في الطابق الخامس... ثم اختفت. وكنت قد سمعت أنه مغلق، لكن... أظننا بحاجة أن نصعد إليه."

ترددت فاطمة، وقالت:

"سمعت من بعض الطالبات أن من يصعد لا يعود... وأن هناك أصواتًا تُسمع ليلًا من فوق غرفتي."

رفع نوح حاجبيه وسأل:

"في أي طابق غرفتك؟"

"الثالث."

"إذن الطابق الخامس يقع فوقك مباشرة تقريبًا... الصوت الذي تسمعينه قد يكون قادمًا منه."

نظرت فاطمة نحوه، وعيناها ترتجفان بقلق:

"أنت... حقًا مستعد أن تذهب معي؟"

ابتسم، لكن في ابتسامته شيء من التحدي:

"أنا جئت لأكون حارسًا... والآن وجدت ما يجب أن أحرسه فعلًا."

خيم الصمت لبرهة، ثم سمعا خطوات خفيفة تمر قرب باب المكتبة. تبادلا نظرة سريعة، وانخفض صوت فاطمة وهي تقول:

"ليلة الغد... بعد العشاء، نلتقي هنا. ونصعد."

أومأ نوح دون أن ينطق بكلمة.

ثم خرجت فاطمة من المكتبة بخطى مترددة، تختفي في الممر كما لو أنها تحمل سرًا ثقيلًا في قلبها، تاركة نوح يتأمل الكتب من حوله... وكأنها تحوي أجوبة لم تُكتشف بعد.

في الزاوية المعتمة من المكتبة، خلف الرفوف العالية المليئة بالكتب المغبرة، وقفت إحدى المعلمات دون أن يُلاحظ وجودها أحد. كانت معلمة الجغرافيا، السيدة "خديجة"، طويلة القامة، هادئة الطباع، بوجه شاحب لا يُظهر الكثير من التعابير. لكنها الآن لم تكن كما يعرفها الآخرون.

عيناها كانتا مفتوحتين بثبات لا يرمش، وجسدها ساكن كأنها تمثال نُحت من ظلال الغرفة. لم تكن تتنفس حتى، أو لعلها لم تكن بحاجة لذلك. استمعت بصمت مطلق لكل ما دار بين فاطمة ونوح، دون أن يظهر منها رد فعل، وكأن كل كلمة قيلت لم تكن جديدة على مسامعها.

وحين خرجت فاطمة، ظلت المعلمة في مكانها، ثم حرّكت رقبتها ببطء نحو الباب الذي خرجت منه الطالبة. ارتسمت على وجهها ابتسامة خافتة، غريبة، خالية من الدفء. ثم تمتمت بلغة غير مفهومة، كلمات متقطعة كأنها طلاسم:
"إسرا... نيمارخ... زينتاك... ديم أرملوخ."

ثم تقدمت خطوة للأمام، وعبَر ظلها جدار المكتبة، لا كما يفعل البشر، بل كمن هو متصل بالعتمة نفسها.

غادرت بصمت، لكن عيناها لم تعودا طبيعيتين. أصبحت سوداء بالكامل، كأنها عميقة بعمق مقبرة.

كانت قد سمعت... وعرفت... وسيدة الظلال ستُبلغ.

فاطمة... لم تعد وحدها تُراقَب.

عندما وصلت فاطمة إلى باب الفصل، لم تتردد. كانت تعلم، بيقينٍ غريب، أن لا أحد سيلاحظ غيابها... ولا حتى دخولها. فتحت الباب ودخلت بخطى هادئة، وعيناها تتفقدان الفصل بسرعة.

وكما توقّعت، لم يلتفت إليها أحد. الطالبات كنّ جالسات في أماكنهن، يحدّقن إلى الأمام بوجوه خالية من الانفعال، وكأن الزمن نفسه متوقف. والمعلمة، بوقفتها الثابتة أمام السبورة، تتابع الشرح بصوت رتيب، تكتب الطباشير على اللوح كلمات لم تكن واضحة تمامًا، تكرّر ما سبق أن قيل وكأنها تسجّل مشهدًا محفوظًا.

جلست فاطمة في مكانها بهدوء، دون استعجال، ثم فتحت دفترها كما لو أنها لم تغب عن أي شيء. لم يكن هناك لوم، ولا استغراب، ولا حتى نظرة واحدة. كل شيء كان يسير بوتيرة آلية، صامتة، لا تعبّر عن حياة حقيقية.

وبينما أخذت تكتب، لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير:
"هل هذا هو السر؟ أن كل شيء هنا لا ينتبه لمن يرحل... ولا لمن يعود؟"

عند حلول وقت العشاء، خرجت فاطمة من غرفتها متجهة نحو قاعة الطعام. كان الجو باردًا كعادته في المساء، والممرات الطويلة مضاءة بضوء خافت مائل إلى الصفرة. وصلت إلى القاعة، لتجد الفتيات قد بدأوا بالفعل بتناول الطعام. لا أحاديث تدور، ولا ضحكات، فقط الهدوء ذاته الذي أصبح جزءًا من إيقاع المدرسة.

جلست إلى جانب سحر وفرح، اللتين استقبلتاها بإيماءة سريعة، ثم عادتا إلى تناول الطعام.

على الطاولة، كان العشاء بسيطًا: أرز، وبعض الخضروات المطبوخة، وقطعة صغيرة من الدجاج، بدا كل شيء طبيعيًا على غير عادة الأيام الماضية، لا رائحة كريهة، ولا مشاهد مقلقة.

تنفست فاطمة بهدوء، وحاولت أن تشعر ببعض الطمأنينة، وكأن لحظة العشاء هذه منحتها استراحة مؤقتة من كل ما يحيط بها. نظرت حولها، بدا أن كل شيء يسير على ما يرام، حتى المعلمات الجالسات في ركن القاعة كن يتناولن طعامهن بصمت دون نظرات طويلة هذه المرة.

قالت فرح بصوت منخفض وهي تمضغ لقمتها:
"يبدو أن اليوم أفضل من الأمس، أليس كذلك؟"

أومأت فاطمة بابتسامة خفيفة، ثم بدأت بتناول طعامها.
لم يكن هناك ما يثير القلق، على الأقل الآن...

ثم، عند انتهاء العشاء، عادت فاطمة إلى غرفتها كأنها تتبع روتينًا عاديًا، لكن عقلها كان يقظًا بالكامل. جلست على سريرها، ووضعت كتاب الفيزياء أمامها، تحاول أن تتظاهر بالدراسة بينما كانت عيناها تراقبان حركة الساعة المعلقة على الجدار، تنتظر أن تميل العقارب إلى منتصف الليل.

اللحظات تمر ببطء. كل ضوء يُطفأ في الممر يزيد قلبها اضطرابًا، لكنّ تصميمها لم يتغير.

عند منتصف الليل تمامًا، ارتدت معطفها الثقيل بصمت، وخرجت من الغرفة دون أن تصدر صوتًا. كانت قد اتفقت مع نوح على اللقاء عند زاوية الممر المؤدي إلى غرفة الصيانة القديمة، وهو المكان الأقرب إلى السلالم المؤدية إلى الطابق الخامس – ذاك الطابق المحظور الذي لم تجرؤ أي فتاة على الاقتراب منه.

وحين وصلت، كان نوح واقفًا كما وعد. كان يُمسك بمصباح يدوي صغير، ووجهه جاد على غير عادته.

قال بهدوء:
"مستعدة؟"

أومأت فاطمة دون تردد، رغم أن قلبها ينبض بعنف تحت صدرها.

"أنا أعرف ما سنجده هناك، لكن..." قالت بصوت خافت وهي تنظر للسلم المظلم.
"لكنني تعبت من الأسئلة التي لا يجيب عنها أحد."

أجابها نوح، وهو يشعل المصباح:
"وأنا تعبت من البقاء في الظلام."

ثم نظرا معًا إلى السلم الحجري المظلم المؤدي إلى الأعلى، المكان الذي لا تصعد إليه الأرجل، ولا تنزل منه العيون. ومن دون أن ينطق أحدهما بكلمة، بدأت خطواتهما تصعد ببطء نحو الطابق الذي دُفن فيه السر الأكبر لمدرسة زيركان...

ثم صعدا، خطوة بعد خطوة، على الدرج الحجري البارد. كانت الجدران المحيطة مغطاة بطبقة سميكة من الغبار والعفن، وكأن أحدًا لم يمر من هنا منذ سنوات طويلة. كان الضوء الخافت للمصباح اليدوي يرقص على الحيطان، كاشفًا عن خيوط عنكبوت كثيفة وتشققات عميقة، بعضها يشبه وجوهًا مشوهة لوهلة قصيرة، قبل أن يتبدد الوهم.

كان الصمت طاغيًا، لا يُسمع سوى صوت أنفاس فاطمة المرتجفة، وصرير خطوات نوح الثقيلة. كلما اقتربا من الطابق الخامس، كان الهواء يزداد برودة، وكأنهما يقتربان من فم كهف يبتلع الدفء.

توقّف نوح فجأة عند الباب الحديدي الصدئ في نهاية الدرج، وأشار بفانوسه نحوه.
"ها هو... الطابق الخامس."

كان الباب مغلقًا بسلسلة قديمة، ولكنها بدت ضعيفة، كأن الصدأ قد التهم صلابتها منذ زمن. مدّ نوح يده إلى السلسلة وسحبها بقوة، فانكسرت بصوت معدني خافت، وفتح الباب ببطء. صرير المفصلات كان حادًا، مزّق السكون وتركه معلقًا بين الخوف والتوقع.

دخل الاثنان.

الهواء في الداخل كان مختلفًا، كأنهم دخلوا عالمًا آخر. الجدران كانت مغطاة برسوم غريبة، رموز غير مفهومة كُتبت بلون داكن، بعضها يبدو كأنها كُتبت حديثًا، والبعض الآخر باهت لدرجة أنه بالكاد يُرى. الأرض مغطاة ببقايا شموع ذائبة، وأجزاء من ملابس ممزقة، وحتى... كتب.

فاطمة همست وهي تقترب من أحد الجدران:
"ما هذا المكان؟ هذا... ليس فصلًا دراسيًا."

نوح تقدم خطوة، ثم أضاء بمصباحه ركنًا في الغرفة الكبيرة، حيث وُضع كرسي خشبي مكسور، وفوقه دُمية قديمة مغطاة بالقماش.

نظر الاثنان لبعضهما في صمت، ثم اقترب نوح ونزع القماش ببطء...

لكن قبل أن تنكشف الدمية تمامًا، انطفأ المصباح فجأة.

وحلّ الظلام.

شهقت فاطمة بقوة، ارتجف جسدها وانسكب عبير الخوف من عينيها، بينما ظل الظلام الدامس يحيط بهما في الطابق الخامس الغامض. حاول نوح إشعال مصباحه، لكنه فجأة خفت ضوءه حتى اختفى تمامًا، تاركًا المكان في ظلمة ثقيلة تخنق الأنفاس، وكأنها ابتلعت كل شيء حولهما.

في ذلك الصمت المرعب، بدأ الهواء يتغير بشكل غريب، محملاً برائحة عفن وموت لم تستطع فاطمة ولا نوح تحمّلها. تسللت همسات غامضة إلى آذانهم، وكأنها أصوات أرواح ضائعة تتحدث بلغات غير مفهومة، أو ربما هي تعويذات قديمة تُلقى في هدوء.

تمسكت فاطمة بيد نوح بقوة، تشعر بأن قلبها يكاد ينبض خارج صدرها، وكانت تشعر بأن هناك شيء يراقبها من بين الظلال، عيون غير مرئية تخترق عتمة المكان.

نوح بدا متوترًا وعيونه تمسح المكان بقلق، يحاول استجماع شجاعته والاعتماد على المصباح الذي أضاع ضوءه. حاول أن يهدئ فاطمة قائلاً بصوت منخفض:
"ابقِ معي... لن ندعهم يخيفوننا."

ولكن من زوايا الغرفة، بدأ صوت همس يرتفع شيئًا فشيئًا، كلمات غريبة وغير مفهومة تتداخل كأنها نداءات من عالم آخر:
"لا مكان لكم هنا... عودوا قبل أن يفوت الأوان..."

تجمد الدم في عروقهما، وارتفعت أصوات خافتة تموج حولهما، كأنها تقترب رويدًا رويدًا، تتخذ شكل ظلال سوداء تتراقص على الجدران، تتحرك بلا جسم واضح، وكأنها أشباح تحرس أسرار الطابق الخامس.

في تلك اللحظة، لم تستطع فاطمة أن تتحمل، فأطلقت صرخة مكتومة، بينما حاول نوح أن يشق طريقه نحو الدرج، لكنه شعر بأن الأرض تحت قدميه بدأت تهتز، وكأن الطابق يحاول ابتلاعه.

تسارعت ضربات قلبهما، وبدأ الخوف يتملك كل ذرة من جسديهما، وسط العتمة التي باتت أكثر كثافة وقسوة. كل خطوة تخطوها في ذلك الطابق كانت تساوي مواجهتهما لشيء لا يفهمانه ولا يجرؤان على مواجهته.

فجأة، خيم الصمت فجأة، وأصبح كل شيء ساكنًا، حتى الصوت الوحيد الذي بقي هو خفقان قلبيهما المرتعبين.

ثم فجأة، وفي لحظة لم تتجاوز طرفة عين، شعرت فاطمة بأن يد نوح التي كانت تمسك بها تُنتزع من بين أصابعها بقوة، كأن شيئًا خفيًا سحبها إلى الوراء بسرعة مروعة.

شهقت، واستدارت بسرعة نحو مصدر الحركة، لكن نوح لم يكن هناك.

"نوح؟!" همست بصوت مرتجف، يملأه الذعر والارتباك.

لم يكن هناك أثر له، لا خطوات، لا صدى، لا حتى همسة. فقط ظلال باردة تحيط بها، وضوء مصباحه الذي سقط على الأرض ولا يزال مضيئًا، يدور ببطء كأن يدًا غير مرئية دفعته بعيدًا.

تقدمت فاطمة خطوتين نحو المصباح، وهي تلتفت يمينًا ويسارًا، قلبها ينبض بعنف، وعيناها تبحثان في الظلمة عن أي إشارة تدل على مكانه. لكن الطابق بدا كأنه ابتلعه، كما لو أن الجدران نفسها ابتلعته إلى جوفها.

الهواء صار أثقل، والممر صار أطول، والسكوت أكثر رعبًا.

همست من جديد:
"نوح، إذا كانت هذه مزحة... فهي ليست مضحكة."

لكن لا جواب. وحدها العتمة ردّت عليها، وهمسات بعيدة أشبه بنحيب مكتوم، وكأن هناك من يضحك — أو يبكي — خلف الجدران.

وبدأت فاطمة تشعر بأن وجودها في هذا الطابق لم يكن خطأً فقط، بل لعنة.

ثم فجأة، وعلى حين غرة، دوى صوت بارد خلفها كأنما خرج من هواء الغرفة ذاته، حادًا كالسيف، هادئًا كالعاصفة التي تسبق الخراب:

"ماذا تفعلين هنا؟ أليس هذا الطابق محظورًا؟... عودي فورًا إلى غرفتكِ."

تجمدت فاطمة في مكانها، قلبها يكاد ينفجر من صدرها، ثم التفتت ببطء، وعيناها المتسعتان التقطتا صورة غريبة ومقلقة: كانت المعلمة "رنا" واقفة خلفها تمامًا، دون أن يُسمع أي صوت لخطواتها، بثيابها الداكنة التي بدت أشبه بظل متجسد، وعيناها ثابتتان على وجه فاطمة، دون رمشة واحدة، كأنهما عينان لا تنتميان لجسد بشري.

لكن ما أرعب فاطمة أكثر من ظهورها المفاجئ، هو أن عينا المعلمة لم تكن تنظر إلى وجهها مباشرة، بل إلى شيء خلفها، في العتمة... وكأن هناك شيئًا آخر كانت تراه هي ولم تره فاطمة بعد.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم قالت بصوت مرتجف:
"كنت... كنت فقط أبحث عن نوح... لقد كان هنا معي قبل لحظات، ثم—"

قاطعتها المعلمة بنبرة حادة، دون أن تغير نظرتها الباردة:
"لا يوجد أحد هنا إلا أنت. عودي لغرفتكِ... قبل أن تفقدي أكثر مما تظنين."

ثم استدارت، وسارت في الظلام، خطواتها لا تُسمع، كأن الأرض لا تجرؤ أن تُصدر صوتًا تحت قدميها.

وقفت فاطمة للحظة، مترددة بين الهروب والسؤال، لكن بردًا مفاجئًا تسلل إلى عظامها، فأدركت أن الوقت ليس للجدال.

التقطت مصباح نوح عن الأرض، وبدأت تمشي بخطوات مسرعة نحو الدرج، بينما سؤال واحد يتردد في عقلها كطَنين لا يتوقف:

إذا لم يكن نوح هنا... فأين ذهب؟ ومن الذي سحبه؟

مع مرور أسبوعين، بدأ الصمت يصبح أثقل من المعتاد في أروقة مدرسة زيركان. لم ترَ فاطمة "نوح" منذ تلك الليلة المشؤومة في الطابق الخامس. كل شيء بدا كما هو في الظاهر: الطالبات يتحركن كالأشباح، المعلمات يتحدثن بنفس النبرة الباردة، والروتين اليومي المقيّد مستمر دون خلل. لكن داخل فاطمة، شيء انكسر.

كانت تنظر أحيانًا من نافذتها نحو البوابة الحديدية، وكأنها تتوقع أن تراه واقفًا هناك، مبتسمًا بسخريته المعتادة، أو يدخل حاملاً كيس طعام متأخر، متذمرًا من الوحدة. لكنها لم ترَ شيئًا. ولا أحد ذكر اسمه، كأنما لم يوجد أبدًا.

سألت نفسها مئة مرة إن كانت قد تخيلت كل شيء. هل اختلق عقلها وجوده؟ هل كان نوح مجرد حلم مؤقت حاول أن يمدّ لها يدًا في مكان يغرق في الجنون؟
لكنها لا تزال تتذكر صوته، وضوء مصباحه، ودفء حضوره الذي كان أكثر حياة من كل من حولها.

وذات مساء، بينما كانت تنظف الممرات مع بقيّة الطالبات، مرت بجانب إحدى الحجرات الصغيرة المغلقة دومًا، وسمعت من داخلها خربشات خفيفة... ثم صوتًا أشبه بالهمس، خافتًا، ضعيفًا، لكن مألوفًا:

"فاطمة..."

تسمرت في مكانها، والتفتت بسرعة، قلبها يخبط في صدرها بعنف. لكن لا أحد كان يلتفت لها. وكأن الهمس لم يُسمع إلا في أذنيها فقط. اقتربت من الباب، لكن قبل أن تلمسه، ظهرت إحدى المعلمات فجأة من الزاوية وقالت بنبرة جامدة:

"ممنوع الاقتراب من هذه الغرفة."

أجفلت فاطمة، وتراجعت خطوة، وهي تشعر أن الإجابة عن لغز اختفاء نوح... ربما خلف هذا الباب.
لكنها أدركت أيضًا أن الاقتراب أكثر، قد يكلفها ما هو أغلى من مجرد الطرد من المدرسة.

ثم، وبعد دقائق من انصراف المعلمة، وقفت فاطمة في زاوية الممر تراقب بصمت. شعور غامض بالحذر والانجذاب معًا جذبها نحو الباب الممنوع. كانت على وشك الرحيل حين سمعت خطوات هادئة وثقيلة تقترب.

استدارت ببطء، فإذا بالمديرة تقترب من ذات الغرفة. نفس المديرة التي نادرًا ما تظهر في الطوابق السفلية، والتي لا تُرى إلا في المواقف الاستثنائية. وجهها مغطّى جزئيًا بذلك الوشاح القاتم، لكن عينيها الثاقبتين كانتا واضحتين، كأنهما تُشعان بما لا يُقال.

وقفت أمام الباب المغلق، ولم تطرق. فقط وضعت كفها اليمنى عليه، وهمست بكلمات لم تفهمها فاطمة، كانت أقرب إلى نغمة متواصلة من الهمس الثقيل ـــ كأنها تعاويذ من لغة قديمة، عميقة، غارقة في الزمن.

ثم... فتح الباب من تلقاء نفسه، ببطء، وأصدر صريرًا كأنّه يئن من العُمر. لم تستطع فاطمة رؤية ما في الداخل من مكانها، لكن رائحة غريبة ـــرائحة حديد صدئ مخلوط بالعفنـــ اندفعت للخارج.

دخلت المديرة ببطء، وسُمع صوت انغلاق الباب خلفها دون أن تلمسه. لم يكن هنالك قفل مسموع، بل مجرد خَبْطة مكتومة... ثم صمت.

تقدّمت فاطمة خطوة، تقاوم نبض قلبها الذي ضرب كطبل في صدرها. أرهفت سمعها... لا شيء.

لكن فجأة، ومن خلف الباب، وصل إلى أذنها صوت أنين خافت... كأنّ شخصًا يحاول أن يهمس بنداء استغاثة... صوت مبحوح، منكسر، لا يُشبه إلا صوت نوح.

شهقت بصوت مكتوم، ثم تراجعت بسرعة، عيناها تتسعان بالخوف والصدمة. كان نوح خلف هذا الباب... حيًا... أو شبه حي.

والآن، عرفت فاطمة أن عليها أن تفعل شيئًا... قبل أن يُسحب هو أيضًا إلى الظلال التي لا يعود منها أحد.

ثم، دون سابق إنذار، بدأ مقبض الباب يتحرك ببطء... لا أحد يلمسه.

تجمّدت فاطمة في مكانها، عيناها متسعتان، وارتبكت، لم تعرف أين تهرب. انفتح الباب وحده، بهدوء مريب، كما لو أن أحدًا من الداخل قد أمره بذلك.

ومن العتمة داخل الغرفة، ظهرت المديرة، واقفة هناك، تمامًا خلف الباب، وكأنها كانت تعلم أن فاطمة واقفة بالخارج.

نظرت إليها مباشرة، نظرة باردة، هادئة، لكنها اخترقت قلب فاطمة كرمح. لم تصرخ، لم تغضب، لم تندهش... فقط نظرت إليها للحظة طويلة، ثم قالت بنبرة أشبه بالهمس:

"أنتِ فضولية أكثر مما يجب يا فاطمة..."

ثم خطت خطوة صغيرة نحوها، دون أن تُكمل كلامها، وتوقفت قرب العتبة.

فاطمة كانت تشعر أن قدميها لا تطاوعانها، بينما يدها تبحث بلا وعي عن مقبض الجدار لتستند.

اقتربت المديرة أكثر، حتى صار وجهها الظليل أمام وجه فاطمة، وهمست هذه المرة بصوت خافت لكنه مسموع:

"لا تعودي للوقوف خلف الأبواب. فبعض الأبواب... تفتح على أشياء لا يجب أن تُرَ."

غادرت المديرة.

ارتجفت أنفاس فاطمة بعد أن أغلق الباب من تلقاء نفسه، وكأن جدارًا أسودًا قد فُرض بينها وبين الحقيقة. نظرت إلى المقبض، ثم إلى الخشب الثقيل، وكل شيء في جسدها كان يقول لها أن تهرب، لكن قلبها كان يصرخ.

وفجأة، دون أن تقرر ذلك مسبقًا، خرج صوتها... مكسورًا، حادًا، ممتزجًا بيأس موجع:

"هل نوح بالداخل؟!"

كان صراخها أكثر من مجرد سؤال، كان رجاءً، وكان أيضًا نداءً للرد على خوفها الذي ظل يتضخم منذ اختفى نوح.

لكن لا صوت أجاب.

لا همسة.

لا حركة.

حتى الهواء بدا وكأنه توقف لثانية.

ثم... همسة ضعيفة، بالكاد تُسمع، صدرت من وراء الباب، كأنها زفير شخص يحتضر، أو ربما ذكرى بعيدة من الماضي... لم تكن

كلمات مفهومة، لكنها جعلت قلب فاطمة يهوي بين ضلوعها.

عيناها امتلأتا بالدموع، ليس من الخوف فقط، بل من الإحساس بالعجز. شعرت فجأة أن المدرسة كلها تبتلع من تحب، دون أن تترك أثرًا. مدت يدها المرتجفة ولمست الباب بأطراف أصابعها... كان باردًا بشكل غير طبيعي.

همست، بصوت مرتعش هذه المرة:

"أرجوكم... فقط قولوا لي إن كان حيًا..."

لكن الباب بقي صامتًا... كما لو أنه شبع من بلع الأرواح، ولم يعد يكترث بمن تبقّى خارجًا.

في الجانب الآخر، حيث لا تصل إليه خطوات الطالبات ولا تصله أنوار المدرسة الخافتة، كان نوح جالسًا على الأرض، مستندًا إلى جدار حجري رطب، يتنفس بصعوبة. لم يعرف كم من الوقت مرّ، ولا كيف أُحضر إلى هذا المكان — كل ما يتذكره أنه شعر بيد باردة سحبته من الطابق الخامس، قبل أن تغرق الدنيا في عتمة حالكة.

الغرفة التي وُضع فيها ليست كأي مكان رآه من قبل في المدرسة. الجدران ملساء لكنها مليئة بخدوش قديمة، بعضها كأنها كتابات بلغة من زمن غابر، والهواء رطب خانق، يختلط فيه العفن برائحة شيء آخر... شيء يشبه الدم.

كان ضوء المصباح اليدوي قد خفت وانطفأ، ولم يبقَ أمامه سوى بصيص نور شاحب يأتي من شق في السقف الحجري، بالكاد يكشف ظلال السلاسل الحديدية على الأرض. سلاسل؟ نعم... كانت هناك سلاسل، لكنها ليست مربوطة به. هو ليس سجينًا، ليس رسميًا على الأقل.

لكن نوح كان يعرف جيدًا... هو مُراقَب.

تسلل إلى أذنه صوت ناعم، نسائي، كأنه يُهمَس في جمجمته مباشرة:

"أنت غريب هنا... لا تنتمي إلينا... لماذا جئت؟"

رفع رأسه بسرعة، يتفحص الزوايا المظلمة... لا أحد.

لكنه تكلم، رغم الخوف:

"أنا فقط... كنت حارسًا... لم أكن أعرف..."

ضحكة خافتة، رخيمة، مرّت في الأجواء كنسمة باردة:

"كنت تعرف... منذ أن خلعت نظاراتك، رأيت، أليس كذلك؟"

صمت نوح.

كان جسده يرتجف قليلًا، لكن عينيه ما زالتا تقاتلان كي لا تغلقا، كي لا يُغمى عليه.

"وفاطمة؟" سأل بصوت خفيض، كأن الأمل الوحيد في صوته.

لكن الصوت لم يجب.

بل ارتفعت في الزاوية المقابلة همسات غير مفهومة... ثم ظهر ظل، لا وجه له، فقط ملامح مائعة وعينان بيضاوان تحدقان نحوه.

نوح، رغم كل شيء، شد قبضته، وتمتم لنفسه:

"فاطمة... لا تأتي إلى هنا، أرجوك."

لكن ما لم يكن يعرفه... أنها، فعلًا، سمعت صوته من خلف الباب.

في منتصف الليل، وبينما الغرفة مظلمة إلا من وهج خافت لشمعة تحترق ببطء، سمع نوح صوت خطوات تقترب بثبات، ثقيلة ولكنها هادئة. الباب انفتح ببطء، ولم يكن أمامه خيار سوى مواجهة القادم.

دخلت المعلمة بعباءتها السوداء، وعيناها تحملان نظرة قاسية وثابتة، بلا أدنى تعبير من رحمة أو شفقة. وقفت أمام نوح، نظراتها تخترقه كالسكاكين.

قالت بهدوء بارد:
"نوح... لقد كنت تتصرف بتهور، ولا تدري حقيقة ما أنت فيه."

رد نوح بنبرات مكسورة، محاولًا أن يحتفظ ببقايا كبريائه:
"أنا هنا لأحمي... لم أختر هذا المكان، ولم أؤذِ أحدًا عمداً."

ابتسمت ابتسامة مرعبة، وبدأت تهمس بكلمات لا يفهمها، تردد صدى غريب في الزوايا المظلمة للغرفة.

ارتعش نوح، لكن حاول أن يثبت نفسه، وقال:
"أريد الخروج... أريد أن أعرف ماذا يحدث حقًا."

أجابته بصوت بارد:
"ليس كل ما تراه حقيقياً، وليس كل من يطلب الخروج يستحق ذلك."

ثم أمسكت يده فجأة، لكن نوح شعر بيدها كما لو كانت خفيفة كالدخان، لم يلمسها حقاً. حاول سحب يده، لكنها تمسكت به أكثر، وكأن قوة غير مرئية تربطه بالظلام.

بدأ صوتها يرتفع ببطء، كلماتها تتحول إلى ترنيمة غريبة، وازداد الظلام حول نوح كثافة.

في تلك اللحظة، أدرك نوح أنه لا يستطيع الهروب بسهولة، وأن قوة غامضة تحيط به، تنتظره أن يستسلم.

قال نوح بنبرة ملؤها الحنين والضعف:
"أريد العودة إلى فاطمة... لا أطيق البقاء هنا وحدي في هذا الظلام، هي الوحيدة التي تمنحني القوة والأمل."

نظرت إليه المعلمة ببرود، ثم أمالت رأسها قليلاً كمن يدرس لعبة في يديه، ثم همست بصوت بارد:
"فاطمة؟ هي مجرد بشرية، غير مدركة لحجم ما نعيشه هنا. العودة ليست بيدك، ولا بيدها."

ارتجف نوح، لكن صوته ظل حازمًا:
"أنا لن أستسلم، سأجد طريقة للعودة إليها مهما كلف الأمر."

ابتسمت المعلمة ابتسامة مرعبة، ثم اختفت تدريجياً في الظلام، تاركة نوح محاطًا بالصمت والبرد، لكنه تمسك بالأمل بقوة في قلبه.

في غمرة صمت الغرفة وبرودة الهواء التي تخترق كل زاوية، تهيأت الأجواء لتصبح أكثر قتامة ورهبة. فجأة، تفتحت الأبواب ببطء، ودخلت مجموعة من الفتيات. كانت نظراتهن جامدة، عيونهن بلا حياة، ولكنها تحمل في عمقها شرًا لا يوصف.

تقدمن ببطء نحو نوح، الذي وقف مترنحًا، يحاول التشبث بآخر بقايا أمله. لم يكن يستطيع التحرك، فقد استولى على جسده رهبة من الهجوم المحتوم.

لم تصدر الفتيات كلمة واحدة، لكن نواياهن كانت واضحة كالنهار؛ كانت قراراتهن القاتلة تتجسد في كل خطوة يخطونها.

لم تمض سوى لحظات، حتى بدأ الهجوم. أمسكن نوح بقوة، وأمسكن به بإحكام، وكأنهن يردن اقتلاع روحه من جسده.

صرخ نوح بألم يملأ المكان، لكنه لم يجد من يسمعه، فقد كانت الفتيات قد حاصرن المكان، وحُكم عليه بالموت.

وفي النهاية، غابت الأنفاس، وساد السكون القاتل، بينما انطفأت الحياة في عيني نوح، وتحول إلى ذكرى مظلمة تحذر كل من يفكر في تحدي الظلال.

في صباح ذلك اليوم البارد، استيقظت فاطمة على صوت أنين خافت ينبعث من داخل المدرسة، لكنها لم تكترث كثيرًا، معتقدةً أن الأمر طبيعي وسط هذا المكان الغريب. نهضت من سريرها ببطء، وبدأت تستعد للفطور، تحسّ بأن شيئًا ما يثقل قلبها، لكنها لم تستطع تحديده.

عندما نزلت إلى قاعة الطعام، لاحظت أن الجو مختلف عن الأيام السابقة؛ كان هناك هدوء غريب، ووجوه الطالبات والمعلمات تحمل تعبيرات غامضة، تتناثر همسات لا تستطيع فاطمة تفسيرها. على الطاولات، كانت الأطباق مرتبة بشكل اعتيادي، لكن ما جذب انتباهها هو طبق أمامها يحتوي على قطع لحم غير مألوفة، ذات رائحة قوية لكنها بالكاد تستطيع تمييز مصدرها.

لم تستطع فاطمة مقاومة الفضول، فالتقطت شوكتها ببطء وبدأت تأكل، رغم شعورها بعدم الارتياح. حاولت تجاهل الإحساس الغريب في داخلها، مستعينةً بإرادتها، لكنها لم تستطع التخلص من شعور بأن شيئًا ما غير طبيعي يحدث في هذه المدرسة الغامضة.

كانت بداية يومٍ جديد، لكن فاطمة لم تكن تعرف أن هذه اللحظات ما هي إلا بداية لليوم الأسوأ في حياتها، يوم ستكشف فيه الأسرار المدفونة تحت جدران مدرسة زيركان، والتي لم يعد بالإمكان الهروب منها.

ثم انتهت الإفطار، وخاصة من اللحم الذي قُدم على المائدة، وبينما كانت فاطمة تلتقط أنفاسها بهدوء، اقتربت منها إحدى الطالبات بابتسامة باردة تحمل شيئًا من الغموض، وقالت بصوت هادئ لكنه مشحون بمعانٍ خفية:

"كيف اللحم؟ هل هو لذيذ؟"

حدّقت فاطمة في عينيها، وشعرت بارتباك خفي يملأ صدرها، لكنها تمالك نفسها وأجابت بنبرة مترددة:

"نعم... كان... مختلفًا، لم أتناول مثله من قبل."

ابتسمت الطالبة ابتسامة أشد برودة، كأنها تعرف سرًا لا يُفصح عنه، وقالت بنبرة نصف همس:

"هذا اللحم... له مكانة خاصة بيننا. قليلون فقط من يُسمح لهم بتذوقه، فهو طعام من عالم آخر."

لم تستطع فاطمة أن تكتم قلقها، لكنها شعرت أن الحديث يجب أن يتوقف هنا، فأومأت برأسها بهدوء وتنهدت، تاركة تلك الكلمات الغامضة تدور في ذهنها كالظلال الداكنة.

بعد انتهاء الحصص في منتصف النهار، شعرت فاطمة بثقلٍ لا يُحتمل في صدرها، وكأن الأسئلة المتراكمة حول مصير نوح تتشبث بروحها. لم تستطع الصبر أكثر، فقررت أن تذهب إلى غرفة المديرة لترجوها أن تُخرج نوح من تلك الغرفة المظلمة التي اعتبرتها سجنه.

خطت بخطوات مترددة عبر الممرات الصامتة للمدرسة، وكلما اقتربت من غرفة المديرة، ازداد نبض قلبها بسرعة. وصلت إلى الباب، ورفعت يدها لتطرق، لكن الباب فُتح قبل أن تلمس الخشب، فوجدت المديرة تقف هناك بوجهها المغطى بالشال الأسود، عينان باردتان تراقبانها بلا انفعال.

قالت المديرة بصوت هادئ وثابت:

"جئتِ باكراً يا فاطمة، ما الذي تريدين؟"

جمعت فاطمة شجاعتها، ونظرت إليها مباشرة:

"أرجوكِ، أريد أن تعرفي ماذا يحدث مع نوح. أرجوكي، أخرجيه من تلك الغرفة، إنه ليس مكانه هناك."

ابتسمت المديرة ابتسامة خفيفة، كانت تحمل شيئًا من الغموض والاحتقار، وقالت بنبرة تكاد تكون سردًا أكثر من تعاطف:

"لقد أعدته لكِ صباح اليوم في الإفطار."

رمقها فاطمة بدهشة وارتباك، محاولة أن تفهم المقصود من كلماتها، لكنها لم تجد من المديرة سوى هدوءها الغريب، وكأنها تُلقي بمصير نوح في زاوية نسيان.

حاولت فاطمة أن تسأل أكثر، لكن المديرة أغلقت الباب ببطء أمامها، تاركة إياها في دهشةٍ عميقة، غير قادرة على تفسير ما سمعته، وكل ما تبقى هو شعور متزايد بالخوف من أن نوح لم يعد كما كان، وأن شيئًا مظلمًا قد ابتلعه.

عادت فاطمة إلى غرفتها، وأغلقت الباب خلفها بهدوء. وقفت للحظة في وسط الغرفة، تنظر إلى جدرانها البيضاء التي بدت فجأة أكثر ضيقًا وكأنها تحاصرها.

جلست على السرير، وأمسكت بيدها دفتر الملاحظات. لم تستطع أن تزيل صورة كلمات المديرة من ذهنها:
"لكنني أعدته صباح اليوم في الإفطار لكِ."

تكررت العبارة في رأسها كصدى مخيف. ماذا تعني؟ كيف يمكن أن "يُعاد" شخص ما في وجبة الإفطار؟

صمت الغرفة كان يثقل عليها، وساورتها مخاوف خفية تتسلل إلى قلبها بلا رحمة.
بدأت تنظر إلى يدها المرتعشة، وكأنها تنتظر إجابة غير مرئية.

سقطت دموعها بهدوء، لكن لم تكن دموع الحزن فقط، بل دموع من الحيرة والقلق على نوح، وعلى نفسها.
لم تستطع النوم، كانت عيناها تتلفتان في الظلام، تبحثان عن أي بصيص أمل أو تفسير يعيد لها ذاكرتها الطبيعية، ويبعد عنها ذلك الظل الأسود الذي بدأ يتغلغل في حياتها.

وقفت، ومشت ببطء نحو النافذة. نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، وتسألت في نفسها:
"ماذا تفعل هذه المدرسة بنا؟ ولماذا أنا هنا بالذات؟"

ظلّت واقفة هناك، وسط هدوء الليل، وحدها مع أفكارها التي باتت تزداد ثقلاً مع كل ثانية تمر.

تجلس فاطمة على حافة سريرها، يثقلها إحساس غريب لا يمكنها تفسيره. رأسها يدور بسرعة، وصوت دقات قلبها يعمق الخوف في صدرها. تتذكر ذلك اللحم... ذلك اللحم الذي لم تكن تعرف مصدره، لكنه كان يمتد في حلقها وكأنه سم قاتل يتسلل ببطء إلى داخلها.

تصاب بالقشعريرة، وتبدأ يداها ترتعشان كما لو أن شيئًا ما يتحرك تحت جلدها، شيئًا لا يمكنها رؤيته لكنه حاضر بقوة. تسحب نفسها ببطء نحو النافذة، تبحث عن أي شيء يُطمئنها، لكن الخارج مظلم كثيف كظلام القبر.

تغمض عينيها لحظة، تحاول دفن ذلك الشعور المرعب، لكنها تسمع في رأسها همسات خافتة تهمس باسم "نوح" كأنه صدى ميت يحوم حولها بلا رحمة. تتذكر وجهه في تلك اللحظة الأخيرة، وكيف كان يحاول التوسل، والآن... ماذا لو كان ذلك اللحم هو جسده الذي أكلته؟!

تتشبث ببطانية سريرها كأنها الحصن الأخير الذي يحميها من كابوس لا ينتهي، لكن في داخلها تعرف الحقيقة: أنها ليست آمنة، وأن شيئًا مظلمًا قد دخل إلى روحها ولن يتركها أبدًا.

وفجأة، تدرك فاطمة الحقيقة الرهيبة... الحقيقة التي لا يمكن لعقل أن يتحملها دون أن ينكسر. تتسع عيناها، وتضيق أنفاسها، وكأن جدارًا خفيًا يُطبق على صدرها. "كان... كان هو؟" همست لنفسها، لكن صوتها لم يكن أكثر من ارتعاشة موتى.

وضعت يدها على فمها، وكأنها تمنع شيئًا من الخروج... أو تمنع نفسها من الاعتراف بما لا يُغتفر. الغثيان يهجم على معدتها مثل زحف مئات الحشرات، تتلوى داخلها، تلدغها، تعضها، وتملأ فمها بطعم لزج كريه.

تنهض، تتمايل كمن أُصيب بالدوار، وتركض نحو المغسلة، تتقيأ، لكن ليس طعامًا، بل شيئًا داكنًا، لزجًا، كأنه ظلٌ سائل، يخرج من أعماقها. تغسل فمها بيدين مرتجفتين، تنظر في المرآة ـ رغم أنه لا يجب أن تكون هناك مرآة، ومع ذلك، ظهرت ـ ترى انعكاسًا لا يُشبهها... بل يشبه ميتة، أو ربما جانية تلبّست جسدها.

ترتجف، تتراجع، تقع أرضًا، وتبدأ بالبكاء بصوت مكتوم، خانق، يتسلل كأنين جنين تُرك في سرداب مظلم. تهمس بصوت مبحوح:

"يا رب... أنا أكلته؟ أنا... أكلت إنسان؟ أكلت نوح؟"

لكن لا جواب. لا أحد يُسمعها سوى الجدران، التي بدت وكأنها تنحني نحوها، تبتلع صرخاتها، تتغذى على ضعفها.

وفجأة، تسمع صوت خطوات خلف باب غرفتها... خطوات بطيئة... مثقلة... وكأن شخصًا يُسحب قدمًا بعد أخرى... يقترب.

وفاطمة، متسمّرة في مكانها، لا تجرؤ حتى على التنفّس.

وفجأة، قفزت فاطمة من مكانها كأن تيارًا كهربائيًا ضرب جسدها، وركضت بخفة مذعورة نحو الزاوية المعتمة من الغرفة، خلف الستارة الثقيلة، تختبئ بين الظلال. جسدها كله يرتعش، وعيناها تتسعان بترقب أعمى، تراقب من خلال فتحة صغيرة في القماش المُغبّر.

كانت الخطوات تقترب ببطء شديد، احتكاك النعل بالأرض يُصدر صوتًا أشبه بالزحف، وكأن القادم لا ينتمي لعالم الأحياء. تسمرت فاطمة، واضعة يدها على فمها كي لا تصدر أنفاسها صوتًا، وقلبها يدق بعنف كأن صدرها سيتهشم من شدة الخوف.

ثم... توقفت الخطوات خلف الباب مباشرة.

صمت.

طويل.

خانق.

ثم بدأت قبضة الباب تتحرك... صوت الحديد وهو يُدار كان أبطأ مما ينبغي، وكأن الزمن نفسه يُقاوم ما سيأتي.

"لا تفتحي... لا تفتحي..." همست فاطمة لنفسها، لكن الجزء الأعمق منها كان يعرف أنها لا تملك السيطرة على ما سيحدث.

الباب انفتح بهدوء، صريره كأنّه صرخة قبر يُفتح لأول مرة منذ قرون.

لم تدخل أي معلمة، لم تدخل أي طالبة.

بل وقفت في العتبة... جثة.

لم يكن لها ملامح واضحة، مغطاة بثوب المدرسة، لكن وجهها مهترئ، كأنه تعرض للنهش... وعيناها... كانتا مفتوحتين على اتساعهما تحدّقان في الغرفة بصمتٍ مجنون.

وفاطمة، من خلف الستارة، تجمدت، تشهق بلا صوت، تتلوى رعبًا داخليًا وهي تهمس في ذهنها:
"هل هذا نوح؟"

وثم شهقت فاطمة بقوة، شهقة حادة كأنها اختنقت بالهواء ذاته، وارتدت للخلف لترتطم بالحائط البارد خلفها. ارتج جسدها، وتصاعدت أنفاسها سريعة مضطربة، وصوت شهقتها تردد في الغرفة كصرخة طفل في قبر مفتوح.

عيناها بقيتا معلقتين على تلك الجثة الواقفة عند الباب، لا تتحرك، لا تنطق، فقط تحدّق... وكأنها تنتظر فاطمة أن تنهار تمامًا. وفي تلك اللحظة، شعرت فاطمة بأن الزمن توقف، بأن الغرفة أصبحت قبرًا، وأن الظل خلف الستارة لم يعد يكفي ليخفي رعبها.

بدأت تهمس بصوت متهدج، بالكاد يُسمع:
"نوح... إذا كنت... إذا كنت هذا... سامحني... أنا لم أكن أعلم... لم أكن أعلم..."

لكن الجثة لم تتحرك.

الصمت ظل ثابتًا.

وفجأة...
ارتفعت يد الجثة قليلًا، ببطء... ببطء غير طبيعي، كأن العظام تصدر طقطقة من داخلها مع كل حركة... وأشارت نحو فاطمة.

أصبحت شهقات فاطمة متقطعة، أقرب إلى البكاء المكتوم، ودموعها انهمرت بصمت على خديها وهي تتمتم برجاء: "أنا لم أعرف... أقسم أني لم أعرف..."

ثم فجأة، وسط فوضى أنفاسها المرتجفة، داهم عقل فاطمة خاطرٌ كسيفٍ يُقطع في الصميم — تذكّرت.

تذكّرت الطعم الغريب، اللحم الذي كان طريًا بشكل مريب، والابتسامة الخبيثة التي رسمتها إحدى الطالبات صباحًا حين سألتها: "كيف اللحم؟ هل هو لذيذ؟"

اتسعت عيناها، وشهقت من جديد وهي تضع يديها على فمها، وصرخة محبوسة تحاول الخروج لكنها علقت في حلقها كمرارة الحقيقة. تساقطت دموعها، لا من الألم بل من الاشمئزاز، من ذاتها، من ما فعلته دون أن تعلم... لقد أكلت نوح.

نظرت إلى الجثة مجددًا، إلى الجسد الذي رأته عند الباب... لكن هذه المرة، لم يكن كيانًا واضحًا، بل بدأ يتلاشى ببطء، يتبخر كضباب تحت نور خافت لا مصدر له.
بدأت الخطوط تتكسر، وملامحه تنحل، وشيئًا فشيئًا أدركت فاطمة الحقيقة البشعة:
هذا ليس نوح.

نوح الحقيقي... جسده تم تمزيقه، إعدامه بوحشية، وأُطعم لها.

وهذا الذي تراه الآن، هذا الطيف، هذه الهلوسة، ليس سوى بقايا روح تبحث عن عدالة... أو انتقام.

سقطت فاطمة على ركبتيها، جسدها ينتفض، ويديها تحاولان أن تمسحا شيئًا لم يعد موجودًا على شفتيها، طعمًا لا يمكن غسله، ذنبًا لا يمكن نسيانه.

في تلك اللحظة، لم تكن وحدها من تبكي...

الظلام ذاته كان ينوح.

في صباح اليوم التالي، كانت الشمس تغمر النوافذ بنور خافت كأنها مترددة بالدخول إلى هذا المكان الملعون. فاطمة، بوجه شاحب وملامح مرهقة، قررت أن تتظاهر بالمرض. لم تكن تملك القوة لمواجهة أي وجه، ولا حتى ظلال المعلمات أو نظرات الطالبات التي باتت تُشبه عيون الصيادين لا الزملاء.

تمدّدت على سريرها، وغطّت جسدها ببطانيتها الممزقة، ووضعت منشفة مبللة على جبينها لتبدو أكثر إقناعًا إن فتحت إحداهن الباب.

لكن أحدًا لم يأتِ.

لم يُفتح الباب، لم يُقرَع، لم تُسأل إن كانت بخير... بل لم تُسمع أي أصوات. لا وقع أقدام، لا صرير أبواب، لا همسات الطالبات المعتادة، لا صراخ معلمات.
صمت مطبق.

ومع الوقت، بدأ يتسلل إليها شعور غريب...
كأن المدرسة كلها متوقفة، نائمة، مجمدة، إلا وجودها هي.

جلست على السرير بهدوء، تنصت. لا شيء.
اقتربت من الباب وفتحته ببطء... لا أحد. الممرات خالية، والهواء ساكن، وكأن كل ما يحدث في المدرسة، كل الحركة، كل الضجيج، يعتمد على وجودها فقط.

ابتلعت ريقها ببطء، ثم همست لنفسها:
"هل... أنا الوحيدة الحقيقية هنا؟"

ولكنها لم تسمع حتى صدى صوتها.

وكأن الجدران نفسها قررت أن تتوقف عن التفاعل معها.
وكأن المدرسة بدأت تبتلع ذاتها، أو أنها ببساطة... تتهيأ لابتلاعها هي.

جاء الليل، وسرعان ما تحوّلت العتمة في غرفة فاطمة إلى كيان ثقيل يُطبق على صدرها. الهواء صار أكثر برودة، كأن أنفاس الليل نفسها مسمومة. كانت تجلس في زاوية السرير، تضع بطانيتها حول جسدها وكأنها تحتمي بها من العالم الخارجي، من هذا المكان الذي صار ينبض بالرعب.

ثم...
بدأت تسمع الأصوات.

في البداية كانت همسات بعيدة، غير مفهومة، تتردد بين الجدران كأنها آتية من باطن الأرض. ثم بدأ الصوت يقترب، يتحول شيئًا فشيئًا إلى نحيب...
ثم إلى ضحكة مكتومة.
ضحكة امرأة... تهمس... "أكلتِه..."

ارتجفت فاطمة، وقلبها تسارع كطبلٍ في معركة. حدّقت في الباب المغلق، ثم إلى زوايا الغرفة. لا أحد.
لكن الصوت يتكرر.
"أكلتِه... لحمُه بين أسنانكِ... هل تذوقتِ العظام؟"

وضعت يديها على أذنيها، تحاول أن تطرد تلك الهمسات، لكنها لم تختفِ. بل بدأت الأصوات تتضاعف.
همسات نساء، بكاء، خربشات على الحائط، وصوت خطوات ناعمة... تقترب من باب غرفتها.

ثم... توقف كل شيء.

لحظة صمت طويلة، خانقة.
وفجأة—

"فاطمة..."

صوت امرأة خلف الباب، يهمس باسمها وكأنه يغرسه داخل عقلها.
لم تجرؤ على الرد. لم تتحرك. حتى أنفاسها خافت أن تُسمع.
ظلّت تحدق بالباب، حتى رأت ظلال أقدام... تقف. تنتظر.

ثم انحنى الظل، وشيء ما بدأ يزحف من أسفل الباب.

يد صغيرة... عظمية... سوداء.
تزحف نحو سريرها. ترتجف، ثم تتوقف.
فاطمة صرخت، لكن صوتها اختنق داخلها.

فجأة—

كل شيء اختفى.

الأصوات، الظلال، اليد.

لكن الخوف بقي. والهمسات في عقلها لا تزال تردد:

"أكلتِ نوح... أكلتِ نوح..."

ثم، وبينما الخوف يعصر صدرها كيدٍ خفية، قفزت فاطمة من سريرها وركضت نحو الباب. قدماها بالكاد تحملانها، لكن الرعب كان دافعًا أقوى من الألم أو الشك. الممر بدا أطول من المعتاد، أضواؤه خافتة وكأنها تتنفس هي الأخرى ظلامًا.

أسرعت، تتعثر بخطاها، تتلفّت خلفها بين الحين والآخر، وكأن شيئًا ما يطاردها من حيث لا تراه. كل خطوة كانت صدىً لخطوات أخرى لا تعرف إن كانت تتخيلها أم لا.

وصلت إلى باب غرفة المديرة. كان مغلقًا... كعادته.
رفعت يدها وبدأت تطرق بقوة.

"أستاذة! أرجوكِ... أرجوكِ افتحي! أنا... أنا رأيت شيئًا! هناك شيء... هناك كائن في غرفتي!!"

لحظة صمت. لا إجابة.

طرقت أكثر، بيدين مرتجفتين، وقلب يكاد يخرج من صدرها.

وأخيرًا...
انفتح الباب من تلقاء نفسه.

فاطمة تجمدت، ثم دفعت نفسها للدخول. الغرفة كانت مظلمة إلا من شمعة يتراقص ضوؤها على مكتب المديرة، التي كانت جالسة بظهرها لفاطمة.

قالت فاطمة بصوت متقطع من الذعر:
"أستاذة... هناك شيء في غرفتي... هناك يد... يد سوداء... و... وكنت أسمع أصواتًا... ينادونني... يقولون... يقولون إني... إني أكلت لحم نوح!"

لم ترد المديرة على الفور.

مرت لحظة ثقيلة، ثم بصوت هادئ بارد قالت دون أن تستدير:

"تأخرتِ يا فاطمة... من يدخل الظلام، لا يعود كما كان."

استدارت ببطء...

وكانت عيناها سوداوين بالكامل.

تقدّمت فاطمة خطوة إلى الأمام، كانت تتشبث بكلماتها كما يتشبث الغريق بآخر نفَس. الدموع تتلألأ في عينيها، وصوتها يخرج مرتجفًا، كطفلة ضائعة وسط العاصفة:

"أريد العودة إلى بيتي... إلى البصرة... أريد رؤية أبي، أرجوكِ، فقط اتصلي به، أنا لا أريد البقاء هنا أكثر."

لكن المديرة لم ترد، فقط جلست هناك، ساكنة كجثة منتظرة أن تُدفن، قبل أن ترتفع زوايا شفتيها بابتسامة لا تشبه البشر، تلك الابتسامة التي لا تحمل دفئًا بل وعدًا خفيًا بشيء مظلم.

ثم قالت بصوت ناعم كأنه سُمّ يسيل في أذني فاطمة:

"بيتكِ...؟ يا فاطمة، لم تعودي تملكين بيتًا... أنتِ الآن جزء من هذا المكان، من هذه الأرض. ومن يأكل من لحمنا، يصبح من دمنا."

تراجعت فاطمة للخلف، تصطدم بحافة الباب، تكاد تفقد توازنها.

صرخت وهي تهز رأسها:
"لا! لا! أنا لم أكن أعلم! لم أكن أعلم!!"

لكن المديرة وقفت الآن، خطواتها بطيئة وثابتة وهي تقترب من فاطمة، حتى باتت أمامها مباشرة، وقالت وهمسها أشد رعبًا من الصراخ:

"الأبواب لا تُفتح من هنا يا فاطمة... إنها تُغلق فقط."

وفي لحظة، انطفأت الشمعة.
وغرق كل شيء في الظلام.

ثم فجأة، استدارت فاطمة مندفعة، تلاحقها دموع الغضب والرعب، وركضت عبر الممرات الطويلة المظلمة للمدرسة كأن شيئًا يطاردها. خطواتها تتردد بين الجدران الحجرية، وأنفاسها المتسارعة تصخب كصفير ريح في سرداب مهجور.

وصلت إلى غرفتها ودفعت الباب بقوة، ثم أغلقته خلفها ووضعت الكرسي تحته. كانت يداها ترتعشان بشدة وهي تسحب الحقيبة من تحت السرير، وبدأت تلقي بداخلها كل ما وصلت إليه يداها: ملابس، كتاب الإنجيل الصغير، منديل أبيها القديم، وعلبة تحتوي على صور نادرة من أيام الطفولة.

عيناها تجولان في الغرفة كأنها تبحث عن وداعٍ أخير، عن لحظة سلام تودع بها المكان الذي تحول إلى كابوس حي.

همست بصوتٍ مخنوق وهي ترتب أغراضها:

"لا يهم أين أذهب... فقط بعيدًا عن هذا الجحيم... بعيدًا عنهم... بعيدًا عن كل هذا الجنون."

ثم توقفت فجأة، تجمدت يدها وهي تمسك القفل، إذ سمعت شيئًا يتحرك خلف الجدار، كأن هناك من يتنفس ببطء... بصوت عميق... من داخل الحيطان.

لكنها لم تتراجع، أغلقت الحقيبة بعنف، ووقفت أمام الباب، ترخي رأسها قليلًا، وتهمس لنفسها:

"سأخرج الليلة... وإن لم أخرج، فلن يروني حية مجددًا."

ثم أمسكت بمصباحها، ورفعت الحقيبة على كتفها. الباب ينتظر أن يُفتح... والمجهول خلفه كان أرحم من المكوث في غرفة أصبحت مقبرة.

وما إن فتحت فاطمة باب غرفتها، حتى تجمد الدم في عروقها.

كانت إحدى الطالبات واقفة هناك، في قلب الممر المظلم، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة. عيناها ساكنتان، واسعتان بشكل غير طبيعي، ونظرتها... نظرة أشبه بجثة تنظر من تحت الماء.

"إين ذاهبة؟" سألت الطالبة بصوت خافت ممدود، خالٍ من الحياة، كأن الكلمات لا تخرج من فمها بل من مكان أعمق... مكان لا يجب أن يوجد.

شعرت فاطمة بقشعريرة تسري في جسدها، وسحبت الحقيبة خلف ظهرها محاولة إخفاء نيتها. ارتجفت شفتيها وهي تحاول الرد، لكن الكلمات لم تخرج.

الطالبة اقتربت خطوة، لم يكن صوت لخطواتها، وكأنها لا تلمس الأرض.

"أين... ذاهبة؟" كررت السؤال، هذه المرة ببطء أكثر، وكأنها تسحب روح فاطمة مع كل مقطع.

فاطمة تراجعت خطوة إلى الخلف، لكن جسدها ارتطم بحافة السرير. لا مهرب. الممر خلف الطالبة موصد بعينيها اللتين لا تغمضان.

همست فاطمة كأنها تحاول إقناع نفسها:

"كنت فقط... أردت أن أتنفس... قليلاً فقط."

لكن الطالبة ابتسمت.

كانت ابتسامة بلا رحمة، بلا صدق، كأنها قناع انزلق عن وجه شيء ليس بشريًا. ثم اقتربت خطوة أخرى وهمست:

"عودي إلى الداخل... قبل أن يتنفس شيءٌ غيرك."

تراجعت فاطمة ببطء... خطوة بخطوة... حتى أغلقت الباب خلفها بعنف. ثم سقطت على الأرض، تحضن حقيبتها، وعيناها تمتلئان دموعًا جامدة... لا خوفًا فقط، بل من يقينٍ يتسلل إلى أعماقها:

أن الخروج من هذا المكان أصعب من الموت فيه.

نظرت فاطمة إلى الباب نظرة ثابتة، تلمع فيها بريق التحدي والخوف معًا. كان الباب أمامها ليس مجرد عائق خشبي، بل بوابة إلى عالم مجهول ربما يحمل لها الحرية أو الموت.

بدأت في عقلها تخطط، تزن خطواتها بحذر، تحاول تذكر كل صغيرة وكبيرة رصدتها عن تحركات الفتيات والمعلمات، عن الزوايا المظلمة التي قد تخفي مخرجًا أو نفقًا غير مراقب.

كانت تعلم أن الهروب من هذه المدرسة ليس بالأمر السهل، خاصة وأنها محاطة بكائنات لا تشبه البشر، لكن الرغبة في النجاة جعلتها تتحدى كل الخوف الذي يتسلل إلى قلبها.

تأملت النافذة الصغيرة التي تطل على الخارج، وتحسست حقيبتها التي جمعت فيها أشياءها متى كان يستدعي الأمر، ثم نظرت مجددًا نحو الباب، وكأنها تقول لنفسها بصمت:

"لن أكون أسيرة بعد اليوم... سأجد طريقي مهما كلف الأمر."

بلعت فاطمة ريقها بقوة، وبدت كأنها تلتقط أنفاسها وسط سكون قاتل، ثم نهضت ببطء حذر. مدّت يدها لتفتح الباب ببطء، فتحت

الباب قليلاً، وأطلّت بحذر لتجد... لا أحد.

غرفة الردهة خالية، الصمت يعم المكان بشكل مريب، حتى الهواء بدا ثقيلاً وكأنما يخفي أسرارًا مظلمة. دفعت الباب ببطء، وخطت بخطى بطيئة، كل خطوة كانت تصدر صوتًا خافتًا كأنه صدى لرعبها المكبوت.

كانت تشعر بنظرات خفية تخترقها من كل زاوية، لكن عينيها لم تلتقط سوى الفراغ. تنهدت قليلاً، وحاولت تهدئة دقات قلبها، لكنها لم تستطع إبعاد الشعور بأن شيئًا ما يراقبها عن قرب، ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

تقدمت ببطء أكثر، تتلفت بين الحين والآخر، والظلال تتراقص حولها كأشباح حقيقية، لكنها لم تتراجع. عزمها على الهروب بدأ يشتعل كجمرة تحت الرماد، لا يمكنها البقاء في هذا المكان أكثر من ذلك.

فجأة، وفي زاوية مظلمة من الردهة، ظهر وجه فرح، لكن ليس كما عرفتها فاطمة من قبل. كان وجهها مشوّهًا، عينيها تتوهجان بلون أحمر قاتم، وصوتها الذي انبعث منها لم يكن صوت فرح المعتاد، بل كان همسًا عميقًا، مبحوحًا، يحمل في طياته رعبًا لا يوصف:
"أين ذاهبة؟"

تجمدت فاطمة في مكانها لثوانٍ كأن الزمن توقف حولها، قلبها كاد يتوقف عن الخفقان، والهواء أصبح ثقيلاً وكأن ثقل الموت يضغط على صدرها. لكن ذلك لم يدم طويلاً، فجأة انتفضت برعب، رمت حقيبتها على الأرض، وبدأت تركض بأقصى ما تملك من قوة.

خلفها، بدأت خطوات سريعة تتعالى، أصوات قادمة من الظلال، لا تعرف من يطاردها، لكن حضورها كان مهيبًا ومرعبًا، كما لو أن المدرسة نفسها أصبحت صيدًا يلاحقها.

ركضت فاطمة عبر الممرات الضيقة، قلبها يئن من الخوف، والظلال تقترب شيئًا فشيئًا، كانت تسمع أنفاسًا ثقيلة وأصوات همسات لا تفهمها، لكنها تعلم أن الهروب فقط هو خلاصها.

كل زاوية تمر بها كانت تزيد من توترها، وكل صوت خلفها كان يقربها أكثر إلى قبضة ذلك العالم المخفي المرعب.

ثم، وبدون وعي، دفعت فاطمة نفسها نحو أول باب رأته مفتوحًا، دخلت إلى الغرفة الفارغة وأغلقت الباب بهدوء خلفها. كان قلبها يخفق بعنف حتى خشيت أن يُسمع صوته. تراجعت ببطء، ثم جلست خلف الباب، وضعت يدها على فمها تكبت شهقاتها المرتجفة، عيناها تدمعان، وأصابعها ترتجف بشدة.

الصمت... دام لثوانٍ مشحونة بالتوتر، قبل أن تسمع الخطى تقترب.
خطى بطيئة، ثقيلة، كأنها ليست لإنسان، بل لشيء مشوّه يمشي بثقل الموت.

الباب يُفتح ببطء.
الصرير الحاد اخترق صمت الغرفة كالسهم.
دخلت فرح.

لكنها لم تكن "فرح" بعد الآن.
مشيتها غير طبيعية، كتفيها منحنيان، وذراعاها تتدليان بطريقة لا تشبه البشر.

فاطمة تزداد اختناقًا من الرعب، تحاول ألا تُصدر أي صوت، حتى أنفاسها أصبحت متقطعة بصمت.
فرح تتقدم، تنظر يمينًا ويسارًا... ببطء مريب، ثم فجأة... توقف جسدها.

وفجأة، وبصورة غير إنسانية... دار رأس فرح وحده، فقط الرأس، استدار بزاوية مستحيلة، والرقبة أصدرت صوت طقطقة حاد، ثم انكسر عظم الرقبة فجأة، ليتدلّى الرأس مائلًا بالكامل نحو الأسفل، والعيون تتدلى قليلًا وكأنها ستسقط.

شهقت فاطمة بشدة، وصرخة حادة انفلتت منها رغمًا عنها.

فرح التفتت فورًا نحو الصوت... لكن في لحظة بديهة، وبدافع غريزة النجاة، قفزت فاطمة من خلف الباب، دفعت جسد فرح بطريقة مباغتة جعلتها ترتطم بالحائط، وركضت بسرعة، خارجة من الغرفة كأن الموت يطاردها.

صوت خطوات فرح بدأ من جديد، لكنها لم تلتفت، كل ما كانت تفعله هو أن تهرب... بأقصى ما تملك من قوة، نحو أي مكان، بعيدًا عن هذا الكابوس.

كانت تركض، تلهث، تصرخ داخلها، لكنها لا تجرؤ على الالتفات.
الأروقة الطويلة تزداد ضيقًا، والظلام يُطبق على الجدران وكأن المكان يُغلق عليها رويدًا رويدًا.

لكن فجأة، شعرت فاطمة بشيء غريب في قدميها.
كأن الأرض أصبحت ثقيلة، أو كأن قدميها لم تعودا تتصاعان لها.
خطوتها التالية جاءت متعثرة، ثم تبعتها أخرى مرتجفة، ثم... توقفت.

وقفت فاطمة في منتصف الرواق، عاجزة، تنظر إلى أسفل وتجد قدميها كأنهما لم تعودا جزءًا منها.
أنفاسها تتسارع، ودموعها بدأت تنهمر دون توقف.
شعرت بتيار بارد يسري في ساقيها، يجمّدهما، يسلبهما الحياة، كأن الأرض تشرب طاقتها، أو كأن أحدًا يمسك بها من تحت الأرض، يشدّها نحو الأسفل.

وضعت يديها على الجدار، تحاول التوازن، لكن جسدها يرتجف، وعيناها تغيم بالدموع.
أصوات خطى خلفها... تقترب... ببطء... بثبات.

قالت لنفسها بصوت مختنق:
"أنا لا أستطيع... لا أستطيع الهرب..."

شهقت شهقة عالية وهي تبكي، لم تعرف هل تبكي خوفًا أم عجزًا، أم لأن شيئًا بداخلها بدأ ينهار.
ركبتاها تهويان، وجسدها يتهاوى، حتى سقطت على الأرض، ضامّة ساقيها إلى صدرها، ترتعش.

لم تعد تملك القوة...
ولم يكن هناك من يُنقذها.

وهي جاثية على الأرض، تلفّ ذراعيها حول ساقيها، والدموع تملأ وجهها، بدأ الصمت من حولها يتشقق.
صوت... أولاً كان خافتًا... لكنه سرعان ما بدأ يعلو شيئًا فشيئًا.

ضحكة.

ضحكة عميقة، مبحوحة، لكنها ليست ضحكة عادية.
كانت تخرج من جدران المكان، من الأرض، من السقف... كأنها محاصرة بها.
ضحكة بطيئة، تنزف سخرية... كأنها تسخر منها، من ضعفها، من عجزها، من رعبها.

رفعت فاطمة رأسها ببطء، عيناها دامعتان ومرتعشتان، وراحت تنظر حولها بارتباك.
"مـ.. من هناك؟!"
لكن لا أحد يجيب... فقط الضحكة تزداد.

ثم جاءت ضحكة أخرى... أعلى، أكثر وقاحة، ثم ثالثة... وكأن عدة أفواه تتسلّى بها الآن، تلتهم خوفها، تتغذّى عليه.

صارت الضحكات تتردد في الممر، كأن المكان نفسه يضحك منها... يتهكّم على محاولتها للهرب... على ضعفها.

وضعت فاطمة يديها على أذنيها، محاولة حجب الصوت، لكنها لم تستطع.
فالضحكات لم تكن تُسمع فقط... بل كانت تُحس.
كأن الهواء نفسه صار يهتز من شدتها، كأن الرعب له جسد، وله أنفاس، وله نَفَسٌ ساخن يزحف نحوها.

همست بصوت متهدج، ودمعة تنزلق من خدّها:
"كفى... أرجوكم... كفى..."

لكن الضحكات استمرت...
وكأن فاطمة لم تعد ضيفة في هذا المكان... بل أصبحت نكتته المفضلة.

ثم، وكأن شيئًا في داخلها انفجر — نهضت فاطمة دفعةً واحدة، متجاهلةً ألم قدميها، متجاهلةً دموعها، متجاهلةً ذلك الصوت الذي أخذ يقترب أكثر فأكثر من عقلها.

ركضت.

ركضت وكأن الحياة نفسها تطاردها، وكأن الأرض قد فتحت فمها لتبتلعها.
كانت خطواتها مرتجفة، لكنها سريعة، متخبطة... تصطدم بالجدران، تتعثر، تنهض، ثم تركض من جديد.

الضحكات لم تتوقف... بل أصبحت الآن خلفها، بجانبها، في أذنيها.
كأن المكان كله يستمتع برؤيتها تحاول الهروب، كأنها فأر صغير في متاهة مسكونة.

ركضت عبر الممرات، لا تعرف إلى أين... كانت الجدران تبدو أطول، والممرات أكثر ظلامًا، والهواء أثقل.
أبواب الغرف مرصوصة على جانبي الطريق كقبور... وكل باب تشعر وكأنه يخفي شيئًا، كأن عينًا خلفه تراقب.

"لا، لا، لاااا!" صرخت وهي تلهث، تصفع بقدمها الأرض بكل ما بقي لديها من قوة.

كانت تريد الخروج...
من المدرسة...
من الجنون...
من الكابوس الذي لم يعد يمكن تمييزه عن الواقع.

لكن لا نوافذ، لا مخارج، لا ضوء في آخر النفق.
فقط الظلام...
وهي داخله.

ثم فجأة، ومع كل خطوة يائسة تخطوها، بدأت ترى ضوءًا خافتًا يتلوّن بالأحمر الداكن، ثم اتّضح لها أن الظلام الذي يلفّ المكان ليس فارغًا كما كانت تظن... بل يسكنه شيء.
بل... أشياء.

وقفت فاطمة مكانها فجأة، مجبرة كأن قدميها غُرستا في الأرض، عيناها تتسعان بالرعب، والهواء يتجمّد في صدرها.

من حولها بدأت تتكوّن أشكال...
ظلال تتخذ هيئة الطالبات، لكنهن لم يكن كما عرفتهن.

وجوه مشوهة.

عيون غارقة في السواد، كأن لا قاع لها.
ابتسامات واسعة بطريقة غير بشرية، ترتسم على وجوه لا تنبض بالحياة.
شعورهن ينسدل مبللًا، كما لو أنهن خرجن لتوّهن من قبر غارق بالماء.

فاطمة تلفتت حولها، والأشكال تحيط بها بهدوء مخيف، بلا صوت، بلا كلمة، فقط يحدّقن بها... يقتربن...
كلّ واحدة تمشي بنفس الخطى المتكررة... خطوات باردة تجرّ معها صدى الموت.

همسٌ خافت بدأ يملأ المكان... أسماء تُلفظ ببطء... جمل غير مفهومة، كأنها طلاسم.
ثم واحدة منهن اقتربت كثيرًا... حتى استطاعت فاطمة أن ترى العظام تحت جلد وجهها، وسمعت من فمها الذي لا يتحرّك صوتًا هامسًا:

"انتهى دورِكِ..."

صرخت فاطمة...
لكن لا أحد يسمع في أرض أرملاخ.

انهارت فاطمة على ركبتيها، يداها ترتجفان وعيناها تفيضان بالدموع. لم تعد تعرف إن كانت تصرخ فعلاً أم أن الصرخة حُبست في حلقها ولم تغادر. الهواء صار أثقل، والضوء الخافت بدأ يخفت أكثر فأكثر، حتى اختفت معالم الممر الذي تقف فيه.

بدأت الأشكال المخيفة تقترب، واحدة تلو الأخرى، لا يسرعن الخطى... بل يمشين ببطء وكأنهن على يقين أنها لن تهرب، وكأن النهاية أصبحت مسألة وقت، لا أكثر.

أغلقت عينيها بقوة، وضغطت كفيها على أذنيها، علّها تحجب تلك الهمسات... تلك الكلمات التي لم تكن مفهومة، لكنها تُشعرها وكأن شيئًا ما يزحف داخلها، يُفتت روحها قطعةً قطعة.

"باب الدم... الباب لا يُفتح إلا بالدم... دم نوح، دمك، دم القادم..."
تكررت العبارة كصدىٍ لا نهائي، وكأن الجدران نفسها تنطقها.

ثم فجأة، صوت صفير حاد اخترق الأجواء، تلاه هدوء غريب.
عندما فتحت فاطمة عينيها ببطء، رأت أن الأشكال تجمدت في أماكنها، لا تتحرك، لا تنطق، فقط تنظر... نظرة لا تزال تخرق روحها.

وفي لمح البصر، اختفوا.

كلهم.

كأنهم لم يكونوا هنا أبدًا.

لم يبقَ سوى فاطمة وحدها، في ممر المدرسة، والبرد ينهش عظامها، والخوف قد تجذّر داخلها. لم يعد هناك مجال للشك... ما يجري ليس كابوسًا. إنها عالقة في كيان لا يشبه العالم الذي تعرفه، مكان تحكمه قوانين أخرى... قوانين الدم، والتضحية، والصمت.

بدأت خطواتها تسير بلا وعي، عائدة نحو غرفتها، بينما عيناها لا تزالان تحدقان في الفراغ.
همسة أخرى... أخف، وأقرب، تخرج من خلفها:

"لم تنتهي بعد..."

فاطمة لم تلتفت.

لم تعد تملك الشجاعة.
لكنها كانت تعرف:
ما بدأ في زيركان... لن ينتهي بسهولة.

بدأت فاطمة تشعر بوخز كالإبر في فروة رأسها، كأن شيئًا ما يحاول التسلل إلى داخل عقلها. ازداد الألم بسرعة مروّعة، وبدأت الرؤية تتشوش أمام عينيها، حتى لم تعد تميّز الجدران من الأرض.

وضعت يدها على جبينها، لكن الحرارة كانت مرتفعة بشكل غريب، وكأن النار تشتعل داخل جمجمتها. نبضات قلبها صارت سريعة حد الانفجار، والأصوات في رأسها بدأت تزداد، تتداخل، تتصادم.

"أنتِ مفتاحنا..."
"نحن فيكِ... نحن منكِ..."
"لن تهربي..."

تعثرت فاطمة وسقطت على الأرض، يداها تحاولان الإمساك بأي شيء، لكن لا شيء ثابت.
الأرض نفسها بدأت تدور.
جدران المدرسة تذوب وتعود كأنها طيف، كأنها خيال قديم.

أحست بشيء يضغط على صدرها، خنقة، لم تستطع التنفس، حاولت الصراخ... لكن فمها لم يتحرك.

وفجأة، شريط سريع من الصور بدأ يظهر أمام عينيها وهي على الأرض:

يد نوح ممدودة نحوها وسط الظلام.

باب الطابق الخامس يُفتح ببطء، ويخرج منه نور أحمر كثيف.

معلمة تتحدث بلغة غريبة، والدم يقطر من عينيها.

جسد على طاولة... بلا رأس.

ثم آخر صورة: وجهها هي... لكنه مشوّه، وعيناها سوداوان بالكامل.

لم تحتمل فاطمة ذلك، وصرخت داخل عقلها، صرخة خرساء.

ثم... انطفأ كل شيء.
السواد ابتلعها.
وسقطت فاقدة للوعي، وسط ممر المدرسة، بينما الساعة تشير إلى الثالثة فجرًا...
الساعة التي لا يُفترض لأحد أن يبقى حيًّا فيها داخل "زيركان".

ثم فجأة، انتفضت فاطمة من غيبوبتها كما لو أن شيئًا دفعها للعودة من أعماق السواد. فتحت عينيها ببطء، كل شيء مشوش، الضوء خافت وبارد، والهواء مشبع برائحة حديدية ثقيلة... رائحة دم.

نظرت إلى جسدها المرتجف، وإذا بدماء تسيل من أنفها وفمها، تنزل قطرةً قطرة على الأرض الباردة، وتترك أثرًا كأنها رسمٌ شيطاني يتكوّن من تلقاء نفسه تحتها.

شهقت بشدة، مدّت يديها المرتعشتين تتحسس وجهها، عنقها، ملابسها... الدم في كل مكان.

همست بصوت مكسور، لا تعلم إن كانت تخاطب نفسها أم شيئًا آخر:
"أنا... أنزف؟ لماذا؟ ماذا حدث لي؟"

لكن لا جواب.

نظرت حولها، الممر خالٍ تمامًا، لكنه بدا أطول من المعتاد، وأكثر ظلمة... كأن الجدران اقتربت وأطبقت على المكان. كل شيء ساكن، لكنه ينبض بخطر غير مرئي.

ثم بدأت الدماء تنزل بغزارة أكثر... من أذنيها هذه المرة. أحسّت بطنين مدوٍّ داخل جمجمتها، كأن شيئًا يُنتزع منها بالقوة. لم يكن ألمًا عاديًا، بل نوع من التمزّق الداخلي، الروحي.

زحفت على الأرض وهي تلهث، تحاول الوقوف، تحاول الصراخ، لكن صوتها خافت، ضائع في زوايا الممر الطويل.

وفجأة، ظهر ظل أمامها في نهاية الممر.

ظل طويل... بشري في هيئته... لكن رأسه منحني بشكل غير طبيعي. لا يرى وجهه، لكن كان يقترب بخطى هادئة، كأن الأرض نفسها لا تصدر صوتًا تحت قدميه.

فاطمة حاولت التراجع، لكن قدماها لم تستجيبا.
كل ما استطاعت فعله... هو أن تهمس، بصوت مشوّه:
"نوح...؟"

لكن ذلك الشيء... لم يكن نوحًا.

نهضت فاطمة متثاقلة، عينيها تلتقطان المشهد من حولها ببطء، والدوار لا يزال يثقل رأسها. كانت الغرفة ضيقة، جدرانها متشققة وباهتة، تملأ المكان رائحة كريهة... رائحة جثث متعفنة ودماء قديمة.

على الحائط المقابل، لفت نظرها نصٌ مكتوب بحروف عربية... لكنه كان معكوسًا، كما لو أن الكلمات تُقرأ في مرآة مشوّهة. كانت الحروف متشابكة وغير مفهومة، رموز غريبة تتداخل مع بعضها، تنبض بخطر كامن.

شعرت فجأة بقشعريرة تسري في جسدها، كأن الحروف على الحائط تحكي قصة مظلمة لا ينبغي لها أن تعرفها. حاولت أن تبتعد، لكن قدماها وكأنهما مثبتتان في الأرض.

ابتلعَت فاطمة ريقها، وسألت نفسها بمرارة:
"أين أنا؟ وما هذا المكان؟ ولماذا أشعر أن شيئًا ما لا يريدني أن أغادر؟"

مزقت فاطمة قطعة من قماش ملابسها المهترئة بيد مرتجفة، وحاولت بيدها الأخرى أن تضغط بقوة على الجرح النازف في ذراعها. كان الدم يتدفق بغزارة، لكن رغم الألم، حاولت أن تسيطر على خوفها المتزايد.

كانت الأنفاس تتسارع، وقلبها ينبض بسرعة متزايدة، لكنها أجبرت نفسها على التهدئة، مركزة على إيقاف النزيف. نظرت حولها في الغرفة البائسة، محاطة بالصمت الثقيل الذي كان يكاد يخنقها.

بينما كانت تمسك بالقماش بإحكام، تذكرت فجأة الهمسات التي كانت تسمعها طوال الليل، وأسماءً تكررت في ذهنها... نوح، نوح، نوح...

أدركت أن اللحم الذي أكلته لم يكن مجرد طعام، بل رابطٌ غامضٌ ثقيلٌ، ربطها بمصير نوح المظلم. شعرت بوخز بارد يجتاح روحها، وكأنها محاصرة في شبكة لا مفر منها.

خرجت فاطمة من الغرفة متثاقلة الخطى، ورأسها يوجعها وكأنه ينقسم إلى نصفين. كل خطوة كانت كأنها تخترق جسدها، لكنها أجبرت نفسها على المضي قدمًا رغم الألم والدوار.

الهواء في الممر كان بارداً وثقيلاً، تملأه رائحة العفن والرطوبة التي تزيد من شعورها بالاختناق. حاولت أن تثبت أنفاسها، لكن كل صوتٍ غريب أو حركة بعيدة كانت تزيد من توترها.

كانت تنظر حولها بخوف، وكأنها تتوقع في أي لحظة أن تظهر أمامها أي من الطالبات أو المعلمات اللواتي يطاردنها في كوابيسها. شعرت بعينيها تدمعان، لكنها حذرت نفسها أن لا تسمح للخوف أن يسيطر عليها.

تسارعت دقات قلبها حين لاحظت ضوءًا خافتًا من بعيد، قد يكون طريق النجاة الوحيد من هذا المتاهة المخيفة. هرعت نحوه، على أمل أن تجد مخرجًا أو على الأقل مكانًا آمنًا لتلتقط أنفاسها.

لكنه سرعان ما تلاشى... الضوء، كأنه لم يكن، اختفى في لمح البصر، وابتلع السواد كل شيء من حولها. توقفت فاطمة فجأة في مكانها، وارتجف جسدها بقوة. السكون كان مطبقًا، لكنه لم يكن سكونًا مريحًا... بل ثقيلًا، خانقًا، وكأن الجدران نفسها تنظر إليها وتنتظر لحظة ضعف.

أحست بظلمة المكان تتسلل إلى داخل صدرها، وكأنها مادة سائلة تزحف في شرايينها، تبث فيها الذعر واليأس. مدت يدها تتحسس الجدار لتتأكد أنها ما زالت في ممر، لكنها شعرت بنقش بارد خشن... كلمات لا يمكن فهمها، محفورة بلغة معكوسة، تنبض ببرودة الموت.

تراجعت خطوة، ثم سمعت صوت همسة... ثم اثنتين... ثم تحول الأمر إلى جوقة من الهمسات المجهولة تردد اسمها:

"فاطمة... فاطمة... فاطمة..."

التفتت بكل الاتجاهات، لكن لا أحد... فقط الظلام يتنفس، والجدران تضيق.

ثم سمعت خطوات... بطيئة، مبللة... تقترب.

قطرة... قطرة... قطرة.

صوتها كأن أحدًا يسحب جسدًا ميتًا فوق الأرض.

شعرت بأن الزمن قد تجمد، ورجفت ساقاها، وبدأ صدرها يرتفع ويهبط بسرعة... لم يعد هناك طريق أمامها، فقط ظلمة تزداد كثافة، وخطر يقترب.

وثم فجأة، ومن عمق الظلام، خرجت فتاة تسير بخطوات متشنجة، رأسها مائل إلى الجانب وعيناها بيضاء كأنهما مصابتان بالعمى، لكنها كانت تراها... تراها بوضوحٍ مرعب.

شهقت فاطمة وارتدت إلى الوراء، لكن الفتاة بدأت تلاحقها، تركض وراءها بسرعة غير طبيعية، كأن الأرض لا تلامس قدميها. وبدون تفكير، استدارت فاطمة وبدأت تركض، تتعثر في العتمة، تصطدم بالجدران، تتجاوز الممرات التي لم تكن تعرفها، حتى لمحت بابًا خشبيًا متهالكًا على يمينها—باب لم تره من قبل قط.

اندفعت نحوه، دفعته بقوة، دخلت وأغلقته خلفها بصوت مدوٍّ، ثم وضعت ظهرها عليه وهي تلهث كأن الهواء نفسه يختنق معها.

ظلت واقفة لثوانٍ، تحبس أنفاسها، تتوقع أن ترى المقبض يدور أو الباب يهتز... لكن لا شيء. فقط صمت.

استدارت ببطء، تنظر إلى الغرفة التي دخلتها...

غرفة ضيقة، جدرانها متشققة، تغطيها خيوط العنكبوت، والإضاءة فيها خافتة كأنها تأتي من مصدر لا يمكن تحديده. في الزاوية اليمنى من الغرفة، كانت هناك مرآة مكسورة نصفها مغطى بقماش أسود. وعلى الأرض كتب مبعثرة، وصفحات ممزقة، ورائحة قديمة خانقة تشبه العفن والجلد المحترق.

همست فاطمة لنفسها، **"أين أنا؟"**
لكن لا أحد أجاب... سوى صدى صوتها الذي بدا وكأن شخصًا آخر يكرر الكلمات من خلف الجدران.

اقتربت فاطمة من منتصف الغرفة بخطى مرتجفة، تحاول أن تميز أي شيء يمكن أن يدلها على مكانها، أو ربما وسيلة للهروب. كل شيء هنا كان غريبًا... كأن الزمن نفسه توقف. لا نوافذ، لا أبواب سوى ذلك الذي دخلت منه، ولا صوت إلا أنفاسها المتقطعة.

حدّقت إلى المرآة المكسورة، نصفها مكشوف، والنصف الآخر لا تزال تغطيه قطعة القماش السوداء، المهترئة عند الأطراف. شعرت فجأة أن انعكاسها في المرآة لا يتطابق مع حركاتها... وكأن هناك تأخير بسيط، أو... خيانة في الانعكاس. تراجعت خطوة، لكنها لم تستطع أن تبعد عينيها.

في تلك اللحظة، سقط أحد الكتب على الأرض دون أن يمسه أحد.

شهقت فاطمة، استدارت سريعًا، لا أحد.

أخذت نفسًا عميقًا وانحنت ببطء، رفعت الكتاب، وإذا به جلد قديم، لونه بني غامق، مغطى بطبقة خفيفة من التراب، لا يحمل عنوانًا، فقط رمز محفور على الغلاف: دائرة داخلها عين مفتوحة، تنزف دمًا. نفس الرمز الذي رأته منقوشًا في أحد أحلامها.

فتحته ببطء، والصفحة الأولى بدت كأنها مكتوبة بدم. كلمات عربية قديمة، بعض منها مقلوب، وبعضها ممسوح، لكن جملة واحدة كانت واضحة وضوح السكين:
"الذي يُطعم من الجسد البريء، يصبح هو البوابة."

تجمد الدم في عروق فاطمة، وعيناها تتسعان.
البوابة؟ ماذا يعني هذا؟ جسد من؟ جسد نوح؟ هل أُجبرت على أن تصبح... شيئًا يستخدمونه؟

ثم، فجأة... ارتجّ الباب خلفها.

اهتز المقبض.

تراجعت للخلف بسرعة، وعيناها على الباب. أحدهم بالخارج... الفتاة؟ لا... هذه الطرقات بطيئة، ثقيلة، كأن كائنًا أكبر يقف هناك، يتنفس خلف الخشب.

وبصوت خفيض، مبحوح، جاءها صوت امرأة خلف الباب:
"فاطمة... افتحي، انتهى الوقت... البوابة جاهزة."

سقط الكتاب من يدها، وتراجعت للخلف حتى التصقت بالجدار، ودموعها تنزل بلا توقف. كانت ترتجف بأكملها، لكن في داخلها... في عمق أعماقها... كانت تعرف أن لا أحد سيأتي لإنقاذها. لا أحد.

إلا هي نفسها.

فاطمة، وقد غمرها الخوف حتى خيّل إليها أن جلدها ذاته يرتعش، مدت يدها نحو الكتاب الساقط أرضًا. كان دافئًا... وكأن قلبًا لا يزال ينبض بداخله. ترددت لحظة، ثم انتزعته عن الأرض وضغطته إلى صدرها، كأنها تشدّه ليمنع جسدها من التمزق.

خلف الباب، ظل الصوت يهمس. لا يصرخ، لا يهدد... فقط يهمس، وكأن الباب حاجز شفاف بين الحلم والجنون.
"لقد فتحنا الطريق، فاطمة... كل ما تبقى هو أن تدخلي."

صرير خفيف صدر من أحد زوايا الغرفة. استدارت فاطمة بسرعة، لتجد أن الحائط، الذي ظنته صلبًا، بدأ يتصدع. من الشقوق تخرج أنفاس باردة، وضوء خافت بلون بنفسجي يغمر المكان، كأنه ضوء آتٍ من عالم آخر، لا يشبه الضوء، ولا يشبه الظلام.

في تلك اللحظة، بدأت الرموز المكتوبة على صفحات الكتاب تتوهج، وكلما ازداد توهجها، اشتدت ضربات الباب، حتى بدأ الخشب يئن وكأنه سيُقتلع من جذوره.
ثم فجأة... ساد صمت قاتل.

لا ضربات. لا همسات. لا شقوق تتمدد. فقط... صمت.

لكن فاطمة كانت تعرف أن هذا الهدوء ليس خلاصًا. بل هو اللحظة التي تسبق الكارثة.

ثم — من وسط السكون — بدأ شيء يتسرب من تحت الباب. سائل أسود كثيف، يتحرك كأنه حي، يزحف نحوها ببطء، يلتف حول قدميها.
تراجعت بخوف، ولكن قدماها اصطدمتا بشيء خلفها. استدارت.

لم تكن هناك مرآة.

كانت هناك بوابة.

بوابة من زجاج معتم، على سطحه تنعكس الوجوه: وجه نوح، وجه فرح، وجه والدها، وجهها هي... لكن مشوهة، متعفنة، تبكي دمًا وتهمس جميعها بصوت واحد:
"ادخلي... يا بوابتنا."

صرخت فاطمة بكل قوتها، صرخة لم تكن فقط من الخوف، بل من كل شيء انكسر فيها. لكنها لم تهرب.

بدلاً من ذلك، فتحت الكتاب على الصفحة الأخيرة، حيث كانت الجملة واضحة، محفورة في الجلد لا بالحبر:
"إذا عرفت اسمهم... تستطيع أن ترفضهم."

نظرت إلى المرآة-البوابة... وبدأت تهمس. بدأت تتذكر الأسماء:
زينب. خديجة. رنا. عائشة. رقية. سمية...
أسماء المعلمات... أسماء الجن... أسماء أرملاخ.

وكلما همست باسم، اهتزت البوابة أكثر، والوجوه تقهقرت، والظلال تصرّ وتصرخ وكأنها تُطرد.

لكن فجأة...

انفتح الباب.

ودخلت المعلمة زينب.

لكنها لم تكن بشرًا. جسدها مائل، كأن عظامها تتآكل، ووجهها بلا عينين، فقط ثقوب سوداء تتنفس منها رائحة موت قديم.

ابتسمت.

وقالت بصوت ليس بصوتها:
"لن تنقذي نفسك، فاطمة. أنتِ لستِ الباب فقط... أنتِ المفتاح."

وامتدت يدها الطويلة نحو فاطمة.

لكن فاطمة، وقد تجمّعت كل قوة البقاء في عينيها، رفعت الكتاب عاليًا، وصفقته على البوابة.

وسمعت آخر صوت قبل أن ينفجر كل شيء من حولها:
"لا!"

ثم...
سواد.

وسكون.
وأنفاس... ليست أنفاسها.

ثم بدأت هيئة الجن تظهر، لا على شكل أجساد، بل كظلال تتموج في الهواء، كأن الدخان نفسه أصبح حيًا. تتسلل الأصوات في أذن فاطمة همسًا، لكن الهمسات لا تشبه أي لغة تعرفها — مزيج من أصوات أطفال يبكون، وعجائز يضحكون، وشيء ثالث... شيء لا يمكن تصنيفه، لا بشري ولا حيواني.

تشعر فاطمة أن الهواء صار أثقل، وأن عينيها ترى شيئًا لا تقدر على فهمه. الظلال تتحرك على الجدران، تقترب منها، ولكن لا جسد لها. فقط صوت.

"أنتِ... أنتِ لحمنا."
"أنتِ مِرآتنا."
"ستعودين إلينا، كما فُصلتِ عنا."

تبدأ فاطمة بالتراجع، يداها ترتجفان، وكل خطوة للخلف تكشف ظلالًا أكثر، كأن المدرسة بأكملها بدأت تكشف وجهها الحقيقي. ليس مكانًا للتعليم، بل قبرًا كبيرًا، روحه لم تمت أبدًا.

تلتفت يمينًا، فتسمع صوتًا خلفها.
تلتفت خلفها، فيأتي الهمس من أمامها.
كل الاتجاهات أصبحت خطرًا.

وهي لا تراهم.

لكنهم يرونها.
وينتظرون اللحظة المناسبة ليُكملوا الطقس.

وفاطمة... لم تعد تعرف إن كانت تمشي في الممر، أم في عقل أحدهم.

فاطمة تحاول التماسك. تمسك بالجدار بيد مرتجفة، تسير ببطء في الممر، وكل خطوة تحس بها كأنها تمشي فوق أنفاس الموتى.

كانت الأصوات تزداد وضوحًا، لكنها ما زالت غير مفهومة. ومع كل همسة، كانت تشعر بشيء ما يُنتزع من روحها.

ظلال الجن بدأت تتكاثف أكثر، تتمدد على السقف والجدران والأرض... أشكال متداخلة، أيدٍ طويلة نحيلة تخرج من لا مكان، تحاول لمسها، لكنها لا تلمس جسدها، بل تمر من خلاله، فتجعل جلدها يقشعر ويبرد كأنها غُمرت بالماء القذر.

وفجأة، وعلى الجدار أمامها، بدأت تظهر كلمات بالعربية المعكوسة مجددًا. كلمات متقطعة لكنها تنبض بالحياة:

"المختارة..."
"اللحم أُكل..."
"الباب سيفتح قريبًا..."

تحدّق بالكلمات، وعيونها تتسع، ثم تبدأ تُسمع همسات جديدة... ليست من الجن هذه المرة، بل صوت تعرفه.
صوت نوح.

"فاطمة..."

تجمّدت.
الصوت يهمس من خلف الجدار.
اقتربت منه بخطوات مترددة، وضعت أذنها على البقعة التي خرج منها الصوت.

"لماذا أكلتِني؟"

تصرخ فاطمة وتبتعد عن الجدار، ظهرها يصطدم بالحائط المقابل. تتنفس بصعوبة، قلبها يكاد ينفجر من شدة الرعب. تتلفت حولها... الظلال ما تزال موجودة، الأصوات مستمرة، وكل شيء في المدرسة صار يشبه كابوسًا حيًا.

لكن فجأة، لاح في آخر الممر نور ضعيف. باب خشبي قديم نصف مفتوح، يخرج منه ضوء كأن شموعًا تحترق في داخله. ولم تعرف لماذا... شعرت أن عليها الدخول. كأن الهمسات تدفعها نحوه... كأن نوح نفسه خلف ذلك الباب.

وعندما وصلت فاطمة إلى ذلك الباب الخشبي القديم، شعرت بأن كل خطواتها تسير نحو قدر لا يمكن الفرار منه. يدها المرتجفة امتدت ببطء لتفتح الباب، لكنه...

"طراخ!"

انغلق فجأة بقوة جعلتها تقفز إلى الوراء، وصوت الإغلاق لم يكن طبيعيًا — كان كأنه تنهيدة روح قديمة تُسحب نحو الأعماق. وقفت مشدوهة، تحدّق في الباب المغلق أمامها، صدرها يعلو ويهبط بعنف، وقطرات من العرق البارد تنساب من جبينها رغم برودة الجو.

مدّت يدها لتفتحه من جديد، لكنه لم يتحرك... الباب بدا كأنه جزء من الجدار نفسه، كأنه لم يكن موجودًا. حاولت مرة، ومرتين، وثلاثًا... لا جدوى.

ثم بدأت تسمع الصوت من خلف الباب... همسات خافتة تتحول إلى ضحكات متقطعة، ثم:

"تأخرتِ يا فاطمة..."
"الدم أُريق، والروح عرفت طعمك..."
"أنتِ الآن باب آخر... لا تحتاجين لهذا الباب..."

ارتجفت فاطمة، وتراجعت خطوة للوراء، لكن الأرض تحتها أصدرت أنينًا مرعبًا، وكأن شيئًا يتحرك تحت البلاط، يلتف حول

قدميها، يحاول جذبها للأسفل.

نظرت بسرعة إلى الخلف ـــ الممر فارغ، لكن الجدران بدأت تتنفس. نعم، كأنها لحم حي ينبض، ينبسط وينقبض، وهمسات لا تُحصى تخرج منه.

وضعت يديها على أذنيها، أغلقت عينيها، لكنها لم تهرب. لأن الحقيقة بدأت تتسلل إلى عقلها:

الباب أُغلق... لأن من فيه، خرج بالفعل.

فتحت فاطمة الكتاب مجددًا بيدين مرتجفتين، تتنفس بصعوبة، ودمها لا يزال ساخنًا من الجري والرعب. الصفحات تقلبها الريح الخفية التي تسكن المكان، حتى توقفت عند المنتصف... صفحة سوداء تتوسطها كلمات عربية بدت كأنها محفورة، لا مكتوبة، وقد كُتبت بلون أحمر داكن ـــ بلون الدم.

اقتربت عيناها ببطء، وكأن خوفها نفسه يحاول منعها من القراءة، لكن الفضول القاتل أقوى من الخوف. الكلمات كانت كالآتي:

"من أكل اللحم، صارت روحه مشروطة."
"ومن أنطق الاسم، انقلب عليه دمه."
"لا باب إلا من مرآةٍ منسية، ولا خلاص إلا بعينٍ ترى دون أن تنعكس."

تجمدت فاطمة. الكلمات كانت واضحة لكنها مشوشة، كأنها شفرة لا تفهمها إلا الأرواح التي تسكن هذا المكان. حاولت أن تلمس الصفحة، لكن الحروف بدأت تسيل كأنها تنزف.

همست:
"مشروطة...؟ يعني أنا؟"

فجأة، اهتزت الأرض تحت قدميها للحظة خاطفة، والكتاب نفسه ارتجف بين يديها. ظهر سطر إضافي لم يكن هناك قبل لحظة، كُتب أمام عينيها:

"العارف بالدم، إن قرأ، يُختار."

أغلقت فاطمة الكتاب فجأة، كأنها خشيت أن يُكمل بنفسه شيئًا لا تريد أن تسمعه. نظرت حولها ـــ الجدران لا تزال ساكنة، لكن الهواء أثقل. وكأن الكلمات أطلقت شيئًا... شيئًا قادمًا إليها.

نظرت فاطمة إلى الصفحة من جديد، تحاول أن تفكك الغموض المحيط بالكلمات التي خطّت بالدم:

"العارف بالدم، إن قرأ، يُختار."

تمتمت بصوت خافت مرتجف:
"العارف بالدم... أأنا المقصودة؟ أأنا العارف؟"
ارتجفت شفتيها، واهتزت أنفاسها. شعرت وكأن قلبها يُطرق من الداخل، طرقًا مؤلمًا.

عادت بعينيها إلى السطر الأول:

"من أكل اللحم، صارت روحه مشروطة."

شحب وجهها، واهتزت ركبتاها وهي تقرأ الجملة مجددًا.
"روحي... مشروطة؟" قالت بصوت خافت، وكأنها تخشى أن تسمع نفسها.

"مشروطة بماذا؟ وبمن؟ هل أكل لحم نوح جعلني... شيئًا آخر؟"

ثم تابعت القراءة، بعينين دامعتين:

"ومن أنطق الاسم، انقلب عليه دمه."

تسارعت أنفاسها.
"أي اسم؟ نوح؟ أم اسم ذلك الكيان... أرملاخ؟"
وضعت يدها على فمها، كأنها تمنع نفسها من لفظ أي كلمة، خوفًا من أن يُفتح باب لا يُغلق.

ثم انتقلت إلى السطر الأخير، وكان أكثرهم غموضًا:

"لا باب إلا من مرآة منسية، ولا خلاص إلا بعين ترى دون أن تنعكس."

تسارعت نبضات قلبها، وشعرت بدوار خفيف.
"مرآة منسية؟ هل هي المرآة التي رأيتها في حلمي؟ تلك المغطاة بالقماش الأبيض؟"
وضعت يدها على صدرها، حيث خفق قلبها بقوة، وكأن شيئًا بداخلها يحاول الهروب.

ارتدت إلى الوراء، تتأمل الجدار خلفها، تتأكد أن أحدًا لا يقف هناك، فقد شعرت بأنفاس غريبة، ثقيلة، كأن أحدًا يقرأ معها بصمت خانق.

عادت إلى الكتاب، تنظر إليه وكأنه بوابة إلى كارثة.
"إن كان الخلاص هناك... في تلك المرآة... فهل أستطيع الوصول إليها قبل أن يصلوا إليّ؟"

أغلقت الكتاب ببطء، ثم همست لنفسها، وكأنها تُقسم:
"سأصل إلى تلك المرآة... وسأعرف الحقيقة... وإن كانت نهايتي هناك، فلتكن."

تجمّعت قوتها، ووقفت بثبات رغم ارتعاش ساقيها. نظرت حول المكان المظلم، حيث الكلمات العربية المعكوسة لا تزال تحيط بها كعلامات لعنة لا تُمحى. كان الهواء يثقل مع كل نفس تأخذه، وقلوب الجن تهمس خلف الأبواب المغلقة.

أمسكت فاطمة الكتاب بإحكام، وشعرت بثقل المسؤولية على كتفيها. قررت أن تواجه ما هو قادم، مهما كان الثمن. كانت تعرف أن الوقت ينفد، وأن كل لحظة تأخير تعني أنها تقترب أكثر من الوقوع في الفخ الأبدي.

خرجت من المكان بحذر، تحسّست الجدران الباردة، وتسللت في الممرات المظلمة التي كانت تعرفها قليلًا، متجنبة أصوات الخطوات القادمة وأي ظل يتحرك. كان قلبها ينبض بعنف، لكنها كانت مصممة.

في ذهنها كانت صورة نوح تتكرر، واللحم الذي أكلته، والكتاب الملطخ بالدم. كانت تعرف أن هذا الرباط بينهما يحمل مفتاح النجاة أو الهلاك.

اقتربت من الدرج المؤدي إلى الطابق الخامس، الطابق المحظور. لم تستطع أن تبتعد عنه بعد الآن. كانت المرآة المنسية بانتظارها، وربما معها الإجابات التي يمكن أن تحررها أو تدمرها.

رفعت يدها لتلمس الدرابزين، شعرت ببرودة تغلغلت في عظامها، لكنها لم تتراجع. بخطوات مترددة لكنها واثقة، بدأت الصعود. كل درجة تشعر أنها تصعد نحو مصير لا تعرفه، لكن لا مهرب منه.

وأثناء صعودها، همست لنفسها:

"نوح، سأحاول إنقاذك، وإنقاذ نفسي أيضاً... مهما كلف الأمر."

وصلت إلى الباب الكبير في الطابق الخامس، وقفت أمامه تستجمع شجاعتها. كان المغلف بقماش أبيض، يشبه عباءة الموت. ببطء سحبته، لتكشف عن المرآة السوداء التي تخبئ وراءها أسرار أرض أرملاخ.

حدقت في المرآة، فظهرت فيها صورة ضبابية تتحرك وتتشكل، وكأنها تستقبلها أو تحذرها.

فاطمة، في هذه اللحظة، أدركت أن رحلتها الحقيقية بدأت للتو.

تنفست فاطمة بعمق، حاولت تهدئة دقات قلبها المتسارعة، ثم أمسكت بالكتاب الجلد القديم المفتوح على الطاولة أمام المرآة. كانت الكلمات والرموز المكتوبة بالدم تلمع بخفة في الظلام.

بدأت تردد الطقس بصوت خافت، مرتجف، تحاول أن تبطئ خطواتها في النطق حتى لا تخطئ:

"باسم الضياء والليل، وبدم الضحية التي لم تعرف الخوف، أُحل العقد وأُفك الرباط..."

مع كل كلمة تنطقها، شعرت بهزة خفيفة تمر عبر جسدها، وكأن المدرسة نفسها تتنفس معها، وكأن الجدران تهمس باسرارها القديمة.

ظهرت في المرآة وجوه الطالبات والمعلمات المتلبسات، متعفنة ومشوهة، تحاول الاقتراب منها عبر السطح الزجاجي، لكن الضوء الذي ينبعث من الكتاب بدأ يردعهن.

في لحظة، ظهر ظل مظلم ضخماً خلفها، صوت زينب المعلمة يتردد: "لن تسمحي لكِ بالهرب... هذه الأرض لنا".

لكن فاطمة، بقلب مملوء بالإصرار، رفعت يدها حاملةً الكتاب وأكملت:

"بدم الضحية التي أكلتها، وبروح الطهارة التي لم تُقتل، أُعيد الحق وأكسر السحر..."

توهجت المرآة بشدة، وانفتح وسطها فجوة تشبه باباً من الظلام والنور، وبدأت الأرواح الشريرة تُسحب بقوة عاصفة، تصرخ وتقاوم.

فاطمة شعرت بقوة جديدة تتدفق داخلها، دم نوح صار جزءاً من طاقتها، قوة الألم والحب معاً.

أغلق الباب خلفها بقوة، وصرخت الأرواح في المرآة حتى اختفت كلها.

وقفت فاطمة، متعبة، لكنها منتصرة، تعرف أن المعركة لم تنتهِ، لكنها اليوم انتصرت على أرض أرملاخ.

شعرت فاطمة فجأة وكأن العالم حولها قد توقف... ساد هدوء غريب في المكان، لا صراخ، لا همسات، لا خطوات... فقط صمت ثقيل يكاد يخنق الأنفاس.

نظرت حولها، كان الضوء الخافت من المرآة قد تلاشى، والكتاب سكن فوق الطاولة كأنه لم ينبض لحظة بالحياة. شعور غريب بالخفة والفراغ بدأ يزحف داخلها. خفقات قلبها لم تعد واضحة، وكأنها تبطئ شيئًا فشيئًا.

وضعت يدها على رأسها، إحساس بالدوران بدأ يتسلل من مؤخرة عنقها إلى عينيها، ثم شعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميها، وكل شيء حولها بدأ يلتف كدوامة سوداء.

همست بصوت بالكاد يُسمع:

"هل... انتهى كل شيء؟"

ثم بدأت خطواتها تترنح، واهتزت الرؤية أمام عينيها، قبل أن تتهاوى بهدوء على الأرض الباردة.

وآخر ما رأته قبل أن يُغشى عليها كان ظلها المنعكس على أرض الغرفة... بلا رأس.

وفجأة.....

استفاقت فاطمة ببطء. شعور بالثقل يسكن جسدها، وكأن النوم كان خندقًا عميقًا لا قاع له. لم تفتح عينيها على الفور. فقط أنصتت...

الهدوء.

لا صراخ. لا أصوات خطوات متثاقلة. لا همسات جنية تُهمس من الجدران.

مجرد صوت مروحة سقفية تدور ببطء، وصوت تنفسها المتقطّع.

فتحت عينيها أخيرًا. الضوء أبيض، ليس حادًا، بل خافتًا ومشتّتًا. الجدران باهتة اللون، والمكان لا يحمل شيئًا من رطوبة المدرسة ولا من عفونة ممراتها.

رمشت عدة مرات، وبدأت الرؤية تتضح. كانت مستلقية على سرير أبيض، مغطاة ببطانية خفيفة. ذراعها اليمنى موصولة بإبرة مغروسة في وريدها، تتصل بكيس محلول شفاف معلّق قرب السرير.

حاولت النهوض، فشعرت بضعفٍ شديد في جسدها. أنّة خافتة خرجت من حلقها دون وعي.

نظرت من حولها. كانت في غرفة بسيطة، فيها نافذة صغيرة مغلقة بستارة رقيقة، ومنضدة عليها كوب ماء ومصباح مطفأ.

قبل أن تنبس بكلمة، فُتح الباب ببطء.

امرأة ترتدي ملابس طبية خضراء دخلت. ملامحها غريبة بعض الشيء، وعيناها ضيقتان، لكن نظراتها لم تكن شريرة... بل قلقة.

قالت شيئًا بصوت ناعم، لكن بلغة لا تفهمها فاطمة:

"...?Tu başî"

فاطمة عقدت حاجبيها، حدّقت بها قليلاً ثم همست بصوت خافت:
"أنا... أين أنا؟"

المرأة نظرت إليها بتردد، ثم اقتربت ببطء. أومأت برأسها وهي تتحدث مجددًا بكلمات غير مفهومة. كان من الواضح أنها لا تتحدث العربية.

"لم... لم أفهم. أنا... فاطمة. أنا من البصرة." قالت فاطمة، وصوتها يرتعش قليلًا.

المرأة رفعت يديها في محاولة للشرح، ثم أشارت إلى صدرها قائلة ببطء شديد:

"...Azadî... Duhok... nexweşxane"

ثم أخرجت هاتفًا وبدأت تكتب فيه بسرعة. بعد لحظات، أظهرت الشاشة ترجمة بالعربية، مكتوبة بشكل ركيك:
"أنتِ في مستشفى آزادي، مدينة دهوك. وُجدتِ وحدكِ في الجبل."

جفّ حلق فاطمة.
بلعت ريقها بصعوبة.

"في الجبل؟" همست، وكأنها لا تصدّق.

حاولت أن تتذكّر... صور مبعثرة عادت إلى رأسها: المرآة السوداء... رقبة "فرح" المنكسرة... الكتاب المغطى بالدم... وصوت نوح وهو يهمس باسمها...

ثم لا شيء.

كل شيء انقطع فجأة.

"من الذي... من الذي جلبني؟" قالت بصوت خافت.

لكن المرأة لم تفهم. فقط ابتسمت بود، وهزّت رأسها، ثم خرجت من الغرفة بهدوء.

عادت الصمت.

فاطمة حدّقت في السقف، والدمعة تسيل من طرف عينها ببطء.

"هل كنتُ في الجحيم؟" همست.

لكن الجواب لم يأتِ. لا من السقف، ولا من الجدران.

لم تمضِ سوى دقائق على خروج المرأة حتى فُتح الباب مجددًا. هذه المرة، دخل رجل يرتدي زيًّا رسميًا، كان طويل القامة، عريض الكتفين، وعلى كتفه شارة شرطة.

نظر إلى فاطمة، وابتسم بخفة، ثم قال بلغة لم تفهمها، لكن نبرة صوته كانت مطمئنة:
".Tu başî? Em li gora te dîtin... Tu bi xêr hatî"

رمشت فاطمة، وحدّقت فيه كأنها تواجه شبحًا بلغة مجهولة جديدة. تمتمت:
"أنا... لا أفهم... ما تقول... أنا لا أفهم الكردية."

ابتسم الشرطي أكثر، ثم تنحنح وقال هذه المرة بلغة عربية مكسورة، لكن مفهومة:
"آه، عربية؟ طيب... أنتِ بخير؟... نحن وجدناكِ عند الجبل. وحدكِ."

شعرت فاطمة بقشعريرة خفيفة وهي تجلس ببطء على السرير، ويداها متشبثتان بالبطانية.

"أي جبل؟" سألت، وصوتها أقرب للهمس. "كيف... وصلتُ هناك؟"

ضحك الشرطي بهدوء، كأن الموقف بالنسبة له لا يزال غامضًا لكنه غير مرعب، وقال:

"نحن لا نعرف. راعي أغنام رأى ثيابك من بعيد. ظنّكِ جثة. اتصل بنا. وجدناكِ مغمى عليكِ."

صمتت فاطمة.

نظرت إلى يديها، كانت ترتجف دون أن تنتبه.

الشرطي أخرج دفترًا صغيرًا من جيبه، وسأل:
"اسمك؟ من أين أنتِ؟ هل يمكنك أن تعطينا رقمًا لعائلتك؟"

رفعت رأسها إليه ببطء وقالت:
"اسمي فاطمة... من البصرة. لا أعرف إن كان أحد يبحث عني..."

توقف الشرطي للحظة، ثم كتب الاسم في دفتره وقال:
"لا مشكلة. نحن سنتصل. فقط ارتاحي. أنتِ في أمان الآن."

ثم ألقى نظرة سريعة على الغرفة وأغلق دفتره، وابتسم قبل أن يستدير نحو الباب.
وقبل أن يخرج، نظر إليها وقال بلهجة أكثر دفئًا:
"مرحبًا، فاطمة."

وأغلق الباب خلفه.

ظلت فاطمة تحدّق بالباب المغلق... فكرة "الأمان" التي قالها لم تدخل قلبها.
شيء ما في داخلها كان يهمس:
"ما زالوا هناك.

بعد مغادرة الشرطي، غرقت الغرفة في صمتٍ ثقيل، لا يُكسره سوى صوت الساعة المعلّقة على الجدار، تُعلن مرور كل ثانية كأنها خيط يسحبها ببطء من العالم الذي جاءت منه.

تمدّدت فاطمة على السرير، نظرت إلى السقف الأبيض الذي يخلو من أي شائبة، لكنه لم يُشعرها بالأمان... كانت عيناها تتحركان بتوجّس، كما لو أن الظلال تخبّئ وراءها شيئًا لا يُرى.

حاولت أن تُقنع نفسها:
"لقد انتهى... أنا الآن في مستشفى... في دهوك... بين الناس."

لكن قلبها لم يصدّق.

جسدها كان نظيفًا، جُرح رأسها تم تضميده بعناية، والدماء التي غطّت جسدها لم تعد موجودة... لكن رائحتها لا تزال في ذاكرتها، وصدى الضحكات، وصوت فرح، والعيون المشقوقة بالطول... كلها بقيت.

جلست ببطء، ورفعت البطانية عن قدميها، كأنها تتحقق من واقعيتها. ثم مشت نحو النافذة، سحبت الستارة، ورأت من بعيد الجبال الخضراء تحيط بالمستشفى.

لم يكن هناك شيء مخيف في المشهد. حتى السماء كانت صافية، ونسيم بارد يمرّ عبر الزجاج وكأنه يُخبرها:
"لقد نجوتِ."

لكن فاطمة كانت تعرف أن النجاة لا تعني النسيان.

وأن بعض الأبواب، حتى وإن أُغلقت، تترك خلفها ظلالًا لا تختفي بسهولة.

جلست قرب النافذة، وضمت ركبتيها إلى صدرها، واستندت برأسها على الزجاج البارد.
كانت تبكي دون صوت، وشفتيها تتمتمان:
"أنا بخير... أنا بخير... لكني لا أصدق ذلك."
بالضبط، هذا منطق سليم جدًا. بما أن فاطمة لا تملك أي إثبات هوية معها، والشرطة لا يعرفون من تكون، فمن الطبيعي أن يحاولوا سؤالها عن اسمها ومكان سكنها ليعرفوا مَن هي وكيف وصلت إلى هناك.

في اليوم التالي، دخل ضابط شرطة بثياب مدنية، يبدو شابًا لكنه يملك ملامح التعب والسهر. حمل بيده دفترًا صغيرًا، وجلس على الكرسي بجانب السرير، ونظر إلى فاطمة بلطف، ثم قال بالعربية:

"صباح الخير... أنا من مركز شرطة دهوك. نريد فقط أن نعرف من أنتِ، حتى نتواصل مع أهلك."

فاطمة لم ترد في البداية. نظرت إليه طويلًا، وكأن الكلمات لا تريد الخروج. ثم بصوت خافت كأنها تستعيد نفسها لأول مرة، قالت:

"اسمي فاطمة... من الزعفرانية... في البصرة."

كتب الضابط بهدوء، ثم رفع رأسه وسألها:

"هل تذكرين كيف وصلتِ إلى الجبل؟ أو من كان معك؟"

هنا، اختلطت الذاكرة بالكوابيس، وتجمّدت فاطمة. رمشت ببطء، ثم قالت:

"كنت في مدرسة... داخلية... للبنات..."

توقفت فجأة، ثم نظرت إليه وقالت:

"لا أريد العودة... أرجوك، لا ترسلوني هناك."

الشرطي عقد حاجبيه قليلاً، وقال بلطف:

"أي مدرسة؟ ما اسمها؟"

لكن فاطمة همست:

"كانت تحت الأرض... لا أعرف إن كانت حقيقية."

تبادل الضابط نظرة سريعة مع الممرضة الواقفة عند الباب، ثم عاد بنظره إليها وقال:

"لا تقلقي... فقط ساعدينا نعرف كيف وصلتي هنا، وسنأخذك لبيتك بأمان."

أومأت فاطمة برأسها، لكن داخلها لم يكن مطمئنًا. كانت تعرف أنها نجت جسديًا، لكن شيء ما منها ظل هناك... خلف الجدران... في أرض أرملاخ.

بعد أن أخبر الضابط فاطمة أنه سيحاول الاتصال بأهلها، طلب منها أن تكتب اسم والدها ورقم هاتف المنزل إن كانت تذكره، لكنها هزّت رأسها برعب.

قال الضابط بصوت هادئ:
"لا بأس، سنحاول نحن إيجادهم. فقط اهدئي."

خرج من الغرفة ليتحدث مع زملائه، بينما بقيت فاطمة تحدق في سقف الغرفة، تتساءل إذا كان أهلها سيتذكرونها، أو إذا كانت ستعود إلى ذلك الجحيم مرة أخرى.

بعد ساعات قليلة، دخل الضابط مجددًا وبيده هاتف محمول. قال وهو يبتسم بابتسامة خفيفة:
"وجدنا رقم والدك، وسنخبره أنك بخير."

أخذ الهاتف ووضعه أمام فاطمة، فتمتمت بصوت مرتعش:
"أبي... أبي..."

في الجهة الأخرى من الخط، سمع صوت رجل خشن لكن مرتجف من البكاء:
"فاطمة؟! أين أنت؟ هل أنت بخير؟"

انهارت فاطمة بالبكاء وقالت:
"أنا بخير، لكن لا أريد العودة إلى المدرسة..."

سمع الأب صمتًا، ثم قال بحزم:
"سآتي لأخذك. أنتِ لست وحدك."

رغم أن الأمور بدأت تأخذ منحى طبيعيًا، ظل الخوف يختبئ في عيني فاطمة. كانت تعرف أن ما عاشته لم يكن حلمًا، وأن تلك المدرسة ما زالت تحاصره روحها.

بعد اتصال والدها، وصلت سيارة من دهوك لأخذ فاطمة. خرجت من المستشفى بحذر، تنظر إلى السماء كأنها تستنشق الحرية لأول مرة منذ زمن طويل.

في الطريق، حاول والدها تهدئتها، لكنه لاحظ تلك النظرة الغريبة في عينيها، التي لم تعود كما كانت.

وصلوا إلى بيت العائلة في البصرة، حيث الدفء الذي افتقدته. لكن رغم السلام الظاهر، بقيت ذكريات أرملاخ تطاردها في أحلامها.

في إحدى الليالي، بينما كانت فاطمة تستعد للنوم، شعرت بلمسة باردة على كتفها، فالتفتت بسرعة لكن لم يكن هناك أحد.

همست لنفسها:
"لم أنتهِ بعد..."

لكنها عرفت أنها أقوى الآن. بأن تلك التجربة الوحشية جعلتها تخرج من الظلام، لكنها لم تسمح له أن يبتلعها.

نظرت إلى المرآة، ورأت نفسها — ولكن بعينين تلمعان بالشجاعة والأمل.

وهكذا، تبدأ فاطمة فصلًا جديدًا من حياتها، حاملةً في قلبها قوة الأرض المظلمة التي نجت منها، لكن دائمًا يقظة، مستعدة لأي ظل قد يحاول العودة.

النهاية.

رواية
أرض
أرملاخ
"أرملاخ..... أرض بلا مهرب"
رقية سيري كاظم